قدري قلعجي

سيمون بوليفار

بطل الثورة الكبرى

اعلام الحرية
١٣

obeikandl.com

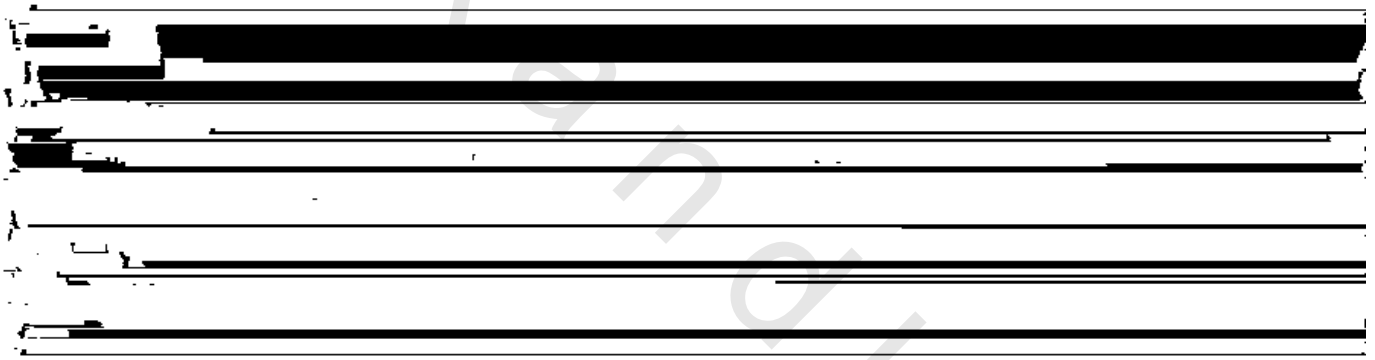

obeikandl.com

الامبراطورية العجوز

كانت الامبراطورية الصينية ، في الازمان السحيقة ، مهد حكمة وفلسفة وفن رفيع ، اوجدت طرق الري واستعملت المعادن وابتدعت الكتابة وعرفت الموسيقى قبل الميلاد بالف سنة ، وانجبت كونفوشيوس ومانشيوس رسولي المحبة والرحمة قبل ان يظهر المسيح بمئات السنين ، واخترقت قوافلها التجارية طرق آسيا الوسطى ، ايام الاغريق والرومان ، حاملة الى الغرب الحرير والطيب ، وعائدة منه بالفن الجميل والرأي الرشيد . وقبل مولد الناصري بقرنين حكم الصين ملكها العظيم شي هونغ تي الذي بنى سور الصين الشهير ، احدى عجائب الدنيا ، ليقي بلاده غزو القبائل البربرية ، وكان طول هذا السور ٢٥٠٠ ميل ، وقد رأى اهل الصين ان يكرموا ملكهم هذا ، فسموا بلادهم باسمه شي ، اي شينا ، اي الصين .

وعندما كان الاسياد والاقطاعيون يستبدون ببلادهم ، في كل بقعة من بقاع الدنيا ، كان للعلماء في الصين مقام رفيع ، واستطاع بعض الفلاحين ان يكونوا فيها اباطرة او نوابا لهم . ومنذ ١٣٠٠ سنة استخدمت الصين الطباعة ، اي قبل ان تعرفها

اوربا بثمانمائة سنة . ومنذ الف سنة ايضاً حاولت الصين تطبيق الاشتراكية الطوباوية بتنظيم الاسعار والاجور والحيلولة دون الازمات الاقتصادية . بل لقد كان الاضراب معروفاً لديها منذ ذلك الحين وحقاً من الحقوق التي يمارسها الاهلون فيقفلون حوانيتهم احتجاجاً على الحكومة السيئة حتى يسمع « ابن السماء » في بكين فيسعى الى إزالة اسباب الشكوى .

ولكن جاء وقت من الزمان وقفت فيه الامة الصينية عند هذا القسط الذي بلغته من الحضارة ، واكتفت به ، ولم تطلب المزيد . وعندما تقف امة في هذا العالم المتطور ، يعني ذلك انها بدأت تتخلف عن قافلة الامم السائرة الى الامام . وعندما تكتفي بما بلغته من فنون وانظمة ، في الحياة الاجتماعية التي تتطلب دائماً فنوناً وانظمة حديثة ، يعني ذلك انها بدأت تجمد على طراز واحد ، ونمط رتيب ، واسلوب من العيش لا يتغير بتغير الزمان ولا يتجدد بتجدد الحاجات المادية والروحية ... ومعنى هذا وذاك ، ان هذه الامة قد شاخت واصبحت بحاجة الى بعث جديد ..

وكذلك كان شأن الامة الصينية في القرون الاخيرة ، ولاسيما بعد ان دخلتها قبائل المانشو ، آخر غزاتها ، واستولت على الحكم فيها سنة ١٦٦٤

في هذه السنة ، بينما كان اوليفر كرومويل يضع في ساحة مارستون مور بلندن ، اسس الحيـــاة البرلمانية الديموقراطية ، ويوطد هذه الاسس بدم الطغاة ، كانت اسرة مانشو المالكة تبدأ في الصين عهداً من الاستبداد السياسي والاقتصادي لم تعرف مثيلاً

له في تاريخها المسترسل الامد . ثم ينقضي قرنان والشعب الصيني رازح تحت هذا النير الثقيل ، حتى ليسمه بميسمه الصارخ ، ميسم الذل والجهل والبؤس المهين ، ويتركه فريسة ضعيفة امام عدوان الاستعمار الغربي الذي تحلب ريقه لمرأى هذا الشعب الكبير الساذج ذي الموارد التي لا تحصى ولا تنضب ، فأقبل لاستنفاد القوة الباقية فيه ، بتجارته وصناعته ، تحميهما جيوشه واساطيله وما يملك من وسائل التدمير ، وتمهد لهما بعثاته الثقافية والتبشيرية ... وكان الأفيون اول واعظم بضاعة حملها اليه ، وحاربه في سبيل حمايتها ، واقام من اجلها الأرض واقعدها باسم حرية التجارة التي تأباها هذه البلاد المتأخرة على رسل المدنية والرقي !

وتهافت الشعب الصيني على هذه البضاعة الثمينة ليخدر بها ما يعانيه من آلام الجوع ومتاعب العمل . فبلاد الصين هي البلاد التي يقضي فيها الجوع على مليونين او ثلاثة ملايين نسمة كل سنة .. وفي كل سنة يلتقط من شوارع شنغاي وحدها ، وهي المدينة التجارية التي تضاهي نيويورك وباريس بمظاهر البذخ ووسائل الترف ، اكثر من ثلاثين الف ضحية لم يموتوا في وباء سار أو في معركة حربية بل قضوا برداً وجوعاً . فالأفيون كان غوثاً لجماهير الشعب الكادحة حملته لها المدنية البيضاء ... وقد قال احد الكتاب الاميركيين جاداً لا هازلاً : « يضيف الافيون الى يوم العمل المضني لدى الصيني ساعة من ابهج ساعات النهار ! » وقال كاتب اميركي آخر هو جون غانتز : « للافيون دخل كبير في شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد الصينية ، ولكي تجرب منعه منعاً باتاً لا بد

من القضاء على ارهاق البدن ومسببات الجوع ... اي لا بد من الارتقاء بالمجموع وبمستواه المادي ارتقاء كبيراً ... »

فاذا كانت اواخر القرن الماضي واوائل القرن العشرين، ونظرنا الى الامة الصينية، راينا انها اعظم دول العالم اتساع رقعة وضخامة عدد وقدماً في الحضارة ، فهي تمتد على ٤٠٠٠٠٠٠٠ ميل مربع ، وتضم ما يزيد على ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠ نسمة ، وترجع حضارتها الى اكثر من اربعة آلاف سنة ، ولكنها امة عجوز ، تتحامل على نفسها ، ولا تستطيع الوقوف على قدميها ، لفرط ما عانت من استبداد الاباطرة واستثمار الاقطاعيين والمستعمرين ، ولما ركبها به الاستبداد والاستثمار من جهل وبؤس ، فهي بحاجة الى قوة جديدة والى دم جديد ، لتنفض عنها غبار السنين ، وتحطم نير الظلم ، وتستقبل الحياة بروح الشباب الطموح .

وكان طبيعياً ان تنشأ الى جانب هذه العناصر الشائخة التي تستمد قوتها من انظمة الاستبداد والاستثمار ، وتحاول اطالة حياتها بتعزيز هذه الانظمة وتأبيدها ، لانها دعامة وجودها وسر بقائها — عناصر فتية ، مثقفة وواعية ، يروعها ما ترى من انحلال امتها وتفسخها وتململها تحت نير الظلم والاستعمار ، فتنشد التحرر من هذا النير ، وتتطلع الى العوامل التي تبعث هذه الامة من جديد ، وتأخذ بها الى ما هي خليقة به من تقدم مادي وروحي . وكان طبيعياً ايضاً ان تلتف حول هذه العناصر ، الاوساط الشعبية التي تعاني من استبداد المستبدين واستثمار المستثمرين اكثر مما يعاني غيرها وجميع الاوساط السليمة الاخرى التي لم يسر اليها الانحلال والتفسخ

فأنكرت جمود الانظمة التي تعيش البـــلاد في ظلها ورغبت في اصلاحها وتجديدها ..

وقد اتجهت هذه اليقظة الوطنية اتجاهات عدة ، وانصبت في تيارات ثورية مختلفة كانت تتلاقى حيناً وتتباعد حيناً آخر .... وكان ابرزها الحركة الثورية التي اعلنت على النظام الملكي السائد، وعلى جميع دعائمه السياسية والاجتماعية ،حرباً لا هوادة فيها ، بقيادة مفكر كبير وبطل وطني عظيم ، رفعه قومه الى مصاف الانبياء ، وجعلوا من تعاليمه شرعة مقدسة يدينون بها ويهتدون بهديها ..

وتعاليم هذا الرجل العظيم غاية في العمق وغاية في البساطة ، جمعت المبادىء الجـــديرة بانشاء الامم القوية الراقية السعيدة في مبادىء ثلاثة ، بل في كلمات ثلاث ، هي القومية والديموقراطيـة والاشتراكية .

بتطبيق هذه القواعد العامة الثلاث ،كان نبي الوطنية الصينية يريد تحقيق حرية الصين ووحدتها ، واقرار سلطة الشعب السياسية والغاء الاستغلال الاقتصادي بين المواطنين ، مؤمناً بأن بلوغ هذه الاهداف هو الذي ينقذ امته من سيطرة المستبدين ومطامـــع المستعمرين ،ويجعل منها دولة راقية عظيمة تزيد في ثروة الحياة ، وتساهم في الحضارة الجديدة ، مثلما ساهمت في الحضارة القديمـة ، بالقسط الموفور واليد الطولى .

وكان هذا المفكر الكبير والبطل الوطني العظيم يدعى سون يات سن [١]، ويسميه الصينيون ابا الجمهورية الصينية .

---

١ ــ Sun yat Sen

عدو الآلهـــة

في الوادي الازرق ، على ضفة نهر اللؤلؤ ، تحت السماء الصافية وبين حقول الارز الشاسعة ، تقوم قرية صغيرة تسمى شوي هونغ . وفي منزل وديع مزخرف ، كغيره من المنازل الوديعة المزخرفة المنتشرة في تلك القرية على كتف الوادي وكأنها اعشاش طيور كبيرة خرافية ، كان سون تات سونغ [1] قلقاً في ذلك المساء من اماسي الخريف ، يذهب ويجيء مضطربا .. فان زوجه توشك ان تضع مولوداً جديداً ، وهو يفكر في آلامها ، ويفكر في همومه ، ويفكر في مستقبل الاسرة التي يكفلها والتي يزداد عددها باستمرار لان الارض التي كان يستأجرها ويشقى في فلاحتها وزراعتها ، لم تكن لتدر عليه غير مقدار يسير من الارز كان صاحب الارض يأخذ نصفه ، وكان الجباة يأخذون نصف ما تبقى له .

كان الرجل يفكر في هذا كله ، ولكنه يحمد الله على كل حال ، وتتصاعد الصلوات من فمه حارة خاشعة ، فيرتعش لسماعها قلب الزوجة في ركنها المظلم ، وتعاودها صورة الحلم الرهيب الذي تراءى لها لأيام خلت .. لقد رأت الاله الكبير بوك تي يتقدم نحوها

---

١ ــ من عادة الصينيين ان يبدأوا الاسم بلقب الاسرة .

وقد وضع على رأسه شعراً مستعاراً مسترسلاً على كتفيه كعادة الصينيين ايام الحداد ، ثم اخذ ينظر اليها بعينين تتقدان غضباً وتدمعان حزنا .. فماذا تعني هـذه الرؤيا الراعبة ؟ افيخشى الاله بوك تي هذا الجنين الذي يضطرب في احشائها ؟

ارتجفت المراة لهذا الخاطر ، وودت لو تستطيع القضاء على ابنها قبل ان يولد ، اذا كان قدر له حقاً اغضاب الرب الذي عبده قومه منذ آلاف السنين .. ولكن آلامها مالبثت ان شغلتها عن التفكير ، فاسرعت تستنجد مجارة لها ، وما هي الا ساعة او بعض ساعة حتى وضعت مولوداً ذكراً .. فاستبشر الاب وطرب ، ولكن الام كانت مقطبة عابسة ، متشائمة من مولودها ، تنظر اليه دون ان تنفرج شفتاها عن كلمة او ابتسامة ، ثم ما عتمت ان قالت : « سندعوه : تي شيونغ ! » وسرت بهذا الاسم ، وخيل لها انها قد نوجيت به ، ففارقتها كآبتها ، وتولاها البشر ، وركعت الى جوار الطفل تصلي للالهة وتتوسل اليها ان تمنحه الحياة والحكمة !

في ذلك اليوم ، وهو الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٦٦ ، ولد سون يات سن ، الزعيم الصيني الذي اخرج وطنه من ظلمات العبودية الروحية والمادية وشق امامه الطريق الى فجر الحياة الحرة الواعية ، ودعي : تي شيونغ ، اي خادم الأله تي .

ونشأ تي شيونغ كما ينشأ ملايين الاطفال الصينيين ، في قرية تضم خمسمائة نسمة وتكاد تكون نموذجـاً للقرية الصينية لولا مدرستها الصغيرة التي كانت تميزها من اكثر القرى الصينية ، والتي كان يقبل عليها ابناء الفلاحين وبناتهم معاً ، وهو امر نادر في تلك

لربوع ، فيتعلمون الحروف الصينية ، اويتعلمون الكلمات الصينية على الاصح ، إذ ليس لهذه اللغة حروف وانما لكل كلمة صورة ، وقد يكون لهذه الصورة او الكلمة معان عدة ، وفي اللغة الصينية نحو من ٤٠ الف كلمة . وقد اختلف تي شيونغ الى هذه المدرسة حتى سن الثالثة عشرة فتعلم ثلاثة آلاف كلمة .

وكان سكان القرية يدينون بدين كونفوشيوس ، ويعبدون الاله بوك تي ، فنشأ تي شيونغ على سنة آبائه . ولم يكن ثمة مايزرع في نفسه بذور الثورة العاصفة التي اعلنها فيما بعد ونذر لها حياته ، غير ما كان يتهامس به شيوخ القرية من ان ابناء مقاطعة كانتون ، وهي المقاطعة التي ينتسبون اليها ، يبغضون اسرة مانشو الحاكمة ، ويعدونهم غرباء مسيطرين ومستبدين ظالمين . وكان هؤلاء الشيوخ يحذرون الشبان من الخوض في هذا الموضوع ، خوفاً من الوشاة والجواسيس ، ولكن هذا الحذر لم يحل ولا ريب دون سماع تي شيونغ بأنباء ثورة التيبانغ المخفقة التي قام بها الكانتونيون قبل مولده بقليل .

وذات يوم سمع احد الشبان العائدين من الغرب يقول لوهط من اترابه : « ان الانسان لن يعرف معنى الحياة حتى يزور الدول الجمهورية ، فان الجمهوريات لا يحكمها ملوك مستبدون كأباطرة الصين ، بل يحكمها رؤساء ينتخبهم الشعب كل اربع سنوات . . وحتى هؤلاء الرؤساء لا يتمتعون إلا بسلطة محدودة ولا يستطيعون الخروج على احكام الدستور » . . فاخذ يفكر فيما سمعه ويطيل التفكير فيه ، وبعد ايام قيل له ان ذلك الشاب قد اعدم ، فسأل اباه عن سبب اعدامه ، فقال له : « هكذا اراد الامبراطور ،

وارادة الامبراطور فوق كل قانون ، لانها عن السماء تصدر . اليس هو ابن السماء ! » فذهل الفتى لهذا الجواب ، واخذ يقارن سلطان الامبراطور المطلق بما يتمتع به رؤساء الجمهوريات من سلطان مقيد باحكام الدستور !

وعندما بلغ سن الثالثة عشرة ، كتب اخوه الاكبر آه مي الى ابيه ، من هونولولو ، ليبعث اليه به . وكان آه مي يحترف التجارة في جزر هاواي ، وقد تلقى قليلاً من الثقافة العصرية ، فاخذ على نفسه تلقينها لأخيه الصغير ، وارسل في طلبه . ولم يكن لدى الأب ما يحول دون تحقيق هذا الطلب ، فبادر الى ارسال تي شيونغ الى هافاي كي يعيش في كنف اخيه .

وكانت هذه الجزر محطة للسفن التجارية الاميركية والانكليزية ومهجراً لبعض الصينيين ، ومن هؤلاء آه مي الذي عني بزراعة الارز في جزيرة اوهو على مقربة من هونولولو . وكان الاميركيون والانكليز يتنافسون على المقام الاول في هافاي ، ولهؤلاء واولئك مدارسهم التبشيرية التي تعمل على توطيد نفوذهم . فلما قدم تي شيونغ الى هونولولو ألحقه اخوه بمدرسة يرلاني الانكليكانية كي يتعلم اللغة الانكليزية ، لاعتقاده بانه لا يستطيع النجاح في هافاي إذا لم يحسن هذه اللغة .

ظل تي شيونغ تلميذاً داخلياً في هذه المدرسة الانكليزية ست سنوات كاملة كان سلوكه خلالها سلوك التلميذ العادي ، فلم يشترك في اي عمل ثوري ، ولم تبدر منه اية بادرة تشير الى خروجه على تقاليد قومه المتوارثة . وكان النظام السائد في هافاي هو نظام

الملكية ، ولكنها ملكية دستورية ، وكان للسلطة الوطنية مستشارون انكليز واميركيون ، وانظمة العمل فيها خير ، على كل حال ، مما هي عليه في الصين ، حيث يعيش المواطن في ظل الخوف الدائم فريسة للجهل والبؤس والجوع . ويقول زملاؤه في الدراسة انه اذا كان قد اقتبس اثناء اقامته في هافاي شيئاً من مبادىء الحرية ، فقد اقتبسها ولا ريب من التاريخ الانكليزي الذي درسوه ولاسيما من ثورة كرومويل على استبداد شارل الاول .

ولا شك في ان التعليم الديني الذي كان يتلقاه مع جميع التلامذة قد ترك في نفسه اثراً كبيراً حرره من الخرافات الوثنية التي تملأ نفس الصيني خوفاً من الارواح الشريرة ، وحببه بتعاليم المحبة والاخوة في الديانة المسيحية . ومن البديهي ان معلميه ، وكلهم من المبشرين ، قد شجعوه على اعتناق هذه الديانة ، فأطلع اخاه على رغبته في ذلك ، فغضب آه مي غضباً شديداً ، وانبأ اباه بالامر ، واتفق الاثنان على اخراجه من المدرسة المسيحية واعادته الى الصين . فعاد الشاب الى منزله الابوي في قرية شوي هونغ على مقربة من كانتون .

قضى تي شيونغ بعد عودته الى الصين في منتصف سنة ١٨٨٥ ، فترة نضال عنيف بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه . فقد بدأت الثورة تجيش في نفسه على التقاليد الرجعية القديمة ، واتجهت بنوع خاص شطر التقاليد الدينية التي تسدل حجاباً كثيفاً على مواطنيه يحول بينهم وبين اكتشاف حقائق الاشياء ، ويقف عقبة كأداء امام كل اصلاح ، لاقتناع الصينيين بان الاوضاع التي يعيشون فيها

هي اوضاع ابدية قد اقرتها الآلهة وارادت لها الحياة على مـــدى الدهور .

وفي هذه الفترة العاصفة من حياته قدم الى شوي هونغ من شانغاي شاب مثقف يدعى لوك هوتونغ ، فاتصلت بينـــه وبين تي شيونغ وشائج الصداقة . وكان كل منهما يميـــل الى مبادىء العدالة والحرية ، ويؤمن بان الصين لن تستطيع احتلال المكان الذي تستحقه في العالم الا اذا نهجت نهجاً عصرياً وعلمياً في تربيتها وحياتها العامة . وكان هوتونغ على معرفة واسعـــة في التاريخ الصيني ، فكان يروي لصديقه اقاصيص الاولين ، ويصف له مفاسد اسرة مانشو واضطهاد نواب الملك للامة الصينية ، وقـــد قال له يوماً : « ان ادعاء الملوك بالحق الالهي هو ادعاء باطل ولن يعمر طويلا » فقال تي شيونغ : «صدقت ، وحسبك ما قال كاتبنا شان : ان السماء تسمع ولكن بآذان الشعب ! »

وذات يوم اقبل الى القرية مندوب من الجيش لتدريب الشبان الذين بلغوا سن الجنـــدية ، وشاهد هوتونغ هؤلاء الشبان وهم يقومون بتمارينهم العسكرية ، فسخر امام تي شيونغ بهذه الاساليب العتيقة وقال له : « ان خمسين رجلا منظمين ومسلحين جيـــداً يستطيعون القضاء على جيش كامل من هؤلاء» فاجاب تي شيونغ : ان من الواجب انشاء جيش منظم يستطيع حماية الصين من العدوان الخارجي واسقاط أسرة مانشو من على عرش الصين» فقال هوتونغ وكان معجباً بذكاء صديقه وحماسته : « ربما تقوم انت بذلك .. ولعلك قد ولدت لتكون نابوليوناً جديداً يبعث في الصين ! »

وكثيراً ما كان الشابان يتحدثان ، في غمرة حماستهما ، عن ثورة التيبانغ ، فيأسفان لاخفاقها ذلك الاخفاق الذريع ، ويذكران ان هذه الثورة قد بدأت بتحطيم الاصنام التي يعبدهـــا الصينيون ، فيقولان ان الثورة الجديدة يجب ان تنهج هذا النهج ايضاً لتحرير الصينيين من الاوهام التي تؤخر تقدمهم وتطورهم ، لانها ترجـــع جميع ما يضطربون فيه من خير وشر الى قوى غيبية وارواح خفية ..

واحتدمت الثورة يوماً في صدر تي شيونغ ، فدعا رهطـاً من الشبان الى هيكل القرية ، وقال لهم ان الصين لن تكون أمة حية ما دامت تعبد هذه الاوثان من الطين وهـذه الصور من الورق الملون .. وعمد الى تشويه الاصنام التي يعبدون ، متحدياً الآلهة ان تنزل به غضبها ان كان لها من القدرة والسلطان ما يزعمون ... وشاع النبأ الرهيب في القرية ، فهاج اهلها وقالوا ان الشيطان قد تقمص في جسد تي شيونغ ، واقبلت جموعهم المذعورة الى منزل سون تات سونغ تشكو ولده وتطلب معاقبته قبل ان يحل غضب الآلهة بالقرية .. فدفع الاب المطعون في مقدساته مبلغاً ماليـــاً كبيراً لسدنة الهيكل تعويضاً لهم عن التشويه الذي حل بآلهتهم ، ووعدهم بطرد تي شيونغ من القرية ، وما لبث ان حقق وعده غير متردد ولا آسف .. فخرج الشاب الثائر من بيتـه ، ومن قريته ، طريداً شريداً ، هائماً على وجهـــه ، لا يدري اين يلتجىء ، وبمن يلوذ ، وماذا يعمل ؟

وكان هذا اليوم التاريخي يوماً حاسماً في حياة تي شيونغ ، بل في حياة الامة الصينية كلها ..

لقد كانت الثورة تجيش منذ عهد بعيد في صدور الكثير من الصينيين الناقمين على حياة الهوان والاستعباد والتسليم الاعمى بالتقاليد الجامدة المتوارثة ، ولكن الثورة وجدت في ذلك اليوم انساناً تتجسد فيه ..

obeikandl.com

الفكر الحر

ظل تي شيونغ منطلقاً على وجهه حتى بلغ نهر اللؤلؤ فصعد الى مركب بخاري وارتحل الى كانتون . ولم تكن لديه اية فكرة عما يستطيع عمله في هذه المدينة ، فأخذ يسير في شوارعها متسللا مفكراً في مصيره ، فاذا هو امام رجل اجنبي تبدو عليه مظاهر الثراء ، فدنا منه وسأله هل من عمل لديه لشاب صيني ، فدهش الرجل ، وكان يدعى الدكتور جون كير ، لمعرفة هذا الشاب باللغة الانكليزية ، واصطحبه الى مكتبه للوقوف على امره وما لبث ان اوصى به مدير المستشفى الانكليزي الأميركي بالمدينة ليجعله خادماً عنده .

وقضى الشاب سنة كاملة وهو يخدم في المستشفى بغيرة ونباهة وجهتا اليه انظار مرؤوسيه واثارتا اهتمامهم به . واتاح له عمله الاطلاع على حسنات الطب الغربي ، ومقارنة الاساليب العلمية التي يلجأ اليها الأطباء الانكليز والاميركيون ، بأساليب الاطباء الصينيين ، او من يسمون انفسهم كذلك ، في معالجة مرضاهم ، وهي اساليب تعتمد اكثر ما تعتمد على الصلوات التي تستدر عطف الآلهة او التعاويذ التي تطرد الشياطين .

وتمنى هـــذا الشاب الصيني البائس لو تتاح له فرصة اوسع لدراسة الطب والجراحة على الطريقة العلمية الحديثة . واتفق أن البعثة الدينية التي كانت تدير مستشفى كانتون ، كانت تفكر في انشاء مدرسة طبية في هونغ كونغ ،التي كان الانكليز قد احتلوها على أثر حرب الافيون فلما تأسست هـــذه المدرسة فعلاً كان تي شيونغ ، بتوصية مدراء المستشفى ، اول الطلاب الذين التحقوا بها .

وكان تي شيونغ قد استعاد أثناء إقامته في كانتون ، صلتـــه باهله وعطفهم عليه ، غير أنه ظل يصرح لهم بانه لا يستطيع تقديس التقاليد التي اخترعها الطغاة لمباركة طغيانهم . فلما بلغ سن العشرين أخذوا يفكرون في زواجه ، وسرعان ما اختاروا فتـــاة من إحدى القرى المجاورة لهم تدعى لو — زو ، وعينوا موعد الزفاف ، وأرسلوا في طلبه ، فاقبل في الموعد المعين ، وعقد له على الفتاة . وكانت عروسه من بنـــات البونتي اللواتي توضع أقدامهن وهن صغيرات في النعـال الحديدية لتتوقف عن النمو .. ولم يسمح له برؤيتها إلا ليلة العرس .. فأقام معها وقتـــاً قصيراً ، ثم عاد إلى كانتون ، وبقيت هي مع حماتها لتخدمها شأن غيرها من الكنائن .

وعندما تزوج تي شيونغ أطلق عليه إسم جديد هو توك مونغ ، ويعني الفضيلة الشهيرة . ولكنه لم يدع بهذا الاسم قط ، وانمـــا اكتفي باضافته الى اسمه في أوراق الاسرة .

ولم تطل اقامة تي شيونغ في كانتون بعد زواجه ، بل رحـل منها الى هونغ كونغ حيث اخذ يستعد للدخول الى مدرسة الطب . ويبدو أنه كان من شروط انتسابه الى هذه المدرسة ، اعتناقـــه

الديانة المسيحية ، فعهدت البعثة التبشيرية التي كانت تشرف على مستشفى كانتون ومدرسة هونغ كونغ الى المستر هاغـــار باعداده لذلك ، فلقنه هذا التعاليم المسيحية وعمده في حفلة صغيرة .

وفي شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٨٧ فتحت المدرسة الطبية أبوابها ، وبدأ تي شيونغ دراسته فيها بنشاط كبير أخذ يبدد الى النجاح الذي ينشده وجعله يتفوق على كثير من زملائه . غير أن اهتمامه بدروسه لم ينسه قضية بلاده ، فكان كثير التفكير في الشعب الصيني وفي الحكام والامراء الذين يستبدون به . ولشد ما تألم حين استطاعت فرنسا استعمار الهند الصينية دون مقاومة تذكر ، لان الصين ذات الملايين الاربعمائة ، لم يكن لديها جيش واسطول عصريان . وكان كثيراً ما يقول أن وجود أسرة مانشو على عرش البلاد ، قد بات عقبة كأداء تحول دون تقدمها وبلوغها المقام الذي تطمع اليـــه .

وكان سون تي شيونغ أول المتخرجين من مدرسة الطب في هونغ كونغ ، إذ أحرز شهادتها سنة ١٨٩٢ وقرر ممارسة الطب والجراحة في ماكاو المستعمرة البورتغالية القائمة على الضفة المقابلة من الخليج على بعد ٤٠ ميلاً من هونغ كونغ .

وفي هذه السنة اتخذ الطبيب الشاب الاسم الذي عرف به في العالم ، على عادة الصينيين في اتخاذ اسم جديد في كل مرحلة جديدة من مراحل حياتهم ، وهكذا أصبح تي شيونغ أي خادم الله ، يدعى يات سن اي الفكر الحر ، ولكنه ما لبث في غمرة الموجة الثورية التي خاضها فيما بعد ، ان غير حروف هذا الاسم ، فظل يلفظ كما

هو ولكنه أصبح يدل على معنى آخر هو يوم التجديد .

وقد كانت اقامة سون يات سن في ماكاو قصيرة الامد، لان الانظمة السائدة فيها لم تكن لتسمح لغير البورتغاليين بممارسة الطب . غير أنه تعرف خلالها بجماعة من المثقفين الصينيين قد انشأوا جمعية تدعى «الصين الفتاة» ترمي الى اصلاح الاوضاع الاجتماعية في بلادهم والمطالبة بحق المواطنين في حكم انفسهم بواسطة المندوبين الذين ينتخبونهم ، ولكنها تسعى الى اهدافها بالطرق السلمية كايقاظ المواطنين وتربيتهم تربية عامية عصرية تحررهم من الخرافة والفوضى والاستبداد.

سر سون يات سن بهذه الجماعة المفكرة ، وبادر بالانتساب الى جمعيتها الاصلاحية ، وأخذ يعمل على نشر تعاليمها وتحقيق مبادئها . وكانت الطوائف الحرفية في كانتون هي الجماعات الوحيدة المنظمة في الصين والتي تخشى السلطة بأسها وتحرص على تحقيق اهدافها ، فلما سافر سون الى كانتون التقى بصديقه القديم لوك هوتونغ ، واتفقا على العمل الجدي في سبيل الاصلاح الذي طالما تحدثا عنه منذ سنوات . ولما كانا يعتقدان بان استبدال الاساليب الحديثة في التربية والتعليم بالاساليب القديمة ، هو الخطوة الاولى نحو الاصلاح ، فقد قررا اثارة اهتمام الطوائف الحرفية بهذا الهدف لتتبناه وتطالب السلطة بتنفيذه . ولكن هذه الطوائف الحرفية كانت تميل الى المحافظة اكثر مما تميل الى التجديد ، فلم تستطع « الصين الفتاة » اقناعها بفائدة المناهج الاجنبية المحرمة ، عدا عن انها كانت تخشى اثارة الاضطرابات وتعلم ان كل اقتراح يرمي الى تغيير الاساليب القديمة سيحمل حكومة بكين على الاعتقاد بان

الكانتونيين الذين طالما اوجدوا لها المتاعب ، يحاولون قلب النظام القائم بطريقة جديدة .

غير ان اخفاق الحزب الناشىء في مسعاه لم يضعف من حماسته وعزمه على الكفاح ، فعمد الى تأسيس جمعية جديدة ، وأطلق عليها اسم « جمعية التربية » لينفي عنها كل صبغة سياسية ، وانتخب سون رئيساً لها لما يمتاز به من معرفة وخبرة بالحياة . ثم قررت هذه الجمعية توجيه عريضة الى حكومة بكين تبين لها الفوائد التي تجنيها البلاد من انشاء المدارس الزراعية واصلاح الأوضاع التي يعيش فيها المزارعون .

وكتبت هذه العريضة باسلوب بليغ ، وحرص منشئوها على ألا تأخذ شكل المطالبة المثيرة . ووقعها الدكتور سون باسم «سوان وان» وهو اسم جديد أطلقه على نفسه وعرف به منذ ذاك في الاوساط الرسمية ووقع به وثائقه ووصيته الاخيرة ، وهو يعني سون المثقف . وبهذا الاسم الجديد ، أصبح للدكتور سون خمسة اسماء : اسم طفولته ، واسم زواجه ، والاسم المزدوج الذي اتخذه حين بدأ ممارسة الطب وعرف به في العالم كله ، وهذا الاسم الرسمي الاخير . وهو أمر شائع في الصين .

وقد أثارت هذه العريضة الشبهات حول مقدميها ، على الرغم من اللهجة الناعمة التي كتبت بها ، ورأت الاوساط الرسمية في بكين انها تحمل طابعاً أجنبياً يخالف التقاليد القومية ، وأجابت عليها بان مناهج التربية القديمة قد جعلت من الصين دولة عظيمة ، فلا حاجة اذن الى تقليد البرابرة في اساليب حياتهم الحليقة بالقضاء

على الامة الصينية !

وكان هذا الجواب الفظ على نداء انصار التجديد ، بعد اخفاقهم في اقناع الطوائف الحرفية في كانتون بتبني مطالبهم ، كافياً لاقناعهم بان الاصلاح الذي ينشدونه لا يمكن ان يتم بالطرق السلمية ، وبانه لا بد لهم من الالتجاء الى الثورة لتحقيق ما يريدون لأمتهم من تقدم وعدالة وحرية .

لقد كان اعضاء « جمعية التربية » شباناً متحدرين من طبقة لا نفوذ لها في المجتمع ، وكانوا يعرفون مدى ما يملك الاستبداد السائد من قوة وما له من دعائم متينة في جميع الاوساط ، مثلما يعرفون ضعفهم وقلة عددهم ، ولكنهم كانوا يؤمنون بضرورة الاصلاح الذي ينشدون ، ويعتقدون بان الشعب الصيني قادر على قلب الحكم اذا اراد ذلك ، وقد بدا لهم ان من الممكن اثارته بمهاجمة اسرة مانشو المالكة واقناعه بانها السبب الرئيسي لفساد الدولة وشقاء الامة ، فاسرة مانشو ليست اسرة صينية عريقة بل هي دخيلة على الصين ، والكانتونيون يبغضون آل مانشو ويضمرون لهم حقداً كظيما ، والشعب الذي يقاسي امر الاضطهاد وأقسى الاستبداد ، خليق ، اذا ما نشبت حركة تمرد في بعض الاوساط ، بان يؤيدها وينا صرها لتحرير البلاد .

ان الرجل الذي تحدى آلهة بلاده ، وهو فتى ضعيف أعزل ، بين قومه الذين يعبدونها ويتعصبون لها ، يتحدى اليوم النظام الملكي السائد بقواه المادية والبشرية العظيمة ، ويريد تحطيمه بنفر قليل من أصحابه لا يملكون بأساً ولا قوة ! وهو لعمر الحق ،

تفكير جريء حري بالثناء والاعجاب ، ولكنه مع ذلك تفكير ساذج ، يستدعي ، للوهلة الاولى ، الرثاء والاشفاق ! بيد ان سون يات سن ، كان يعتقد بان الحق أقوى من الطغيان ، وبان قوى الخير والتقدم أعظم من قوى الشر والرجوع ، وقد قرأ في تاريخ بلاده أن الشعب الصيني قد أسقط عدة سلالات مالكة فهو اذن قادر على اسقاط سلالة مانشو ايضاً ، وقرأ في تاريخ العالم ان الشعوب كانت دائماً أقوى من المستبدين بأقدارها وإن بدا العكس حيناً لمن يرى ظواهر الأشياء ولا يوجه اليها نظرة شاملة تعانق الماضي والحاضر والمستقبل . وقد درس سون الثورات الانكليزية والاميركية والفرنسية ، وتأثر بآراء روسو تأثراً عظيما ، وآمن ايماناً لا يتزعزع بان الشعب هو المصدر الاول للسلطة ، وبان شعبه ايضاً مصدر السلطة في بلاده ، فيجب ان يتمتع بهذه السلطة ، وهو قادر على ذلك حتما لأن في الشعب الصيني من قوى الخير والتحرر والتطور ما لا يقل عما في غيره من شعوب العالم .

ابن الأرض وابن السماء

●

حوادث العصيان كثيرة في تاريخ الصين المتطاول الحقب، وهو يروي أنباء محاولات عدة للثورة على الحكم الاستبدادي وتحقيق الحرية والرخاء لجماهير الشعب. وفي آداب الصين تراث ديموقراطي قديم، فمنذ اربعمائة سنة قبل الميلاد كان الحكيم مانشيوس يقول: «ان الشعب هو العنصر الرئيسي في البلاد» ويعتقد بان الانظمة إذا أخذت بهذا المبدأ حققت كثيراً من الخير وكثيراً من الصلاح.

بيد أن الثورة التي أراد سون يات سن اضرام نارها في البلاد كانت تختلف عن الثورات التي سبقتها، لأنها لم تكن ترمي الى تغيير الحكام وحسب بل كانت تهدف الى تغيير نظام الحكم. ومن الصعب ان نفهم كيف تصور سون يات سن أن الصينيين مستعدون لأقامة جمهورية ديموقراطية في وطنهم. فالعقبات التي تحول دون ذلك كثيرة، أهمها ان تسعة اعشار السكان كانوا أميين، ولم تكن هنالك لغة واحدة مشتركة بين جميع الصينيين غير لغة الكتابة، وهذه اللغة معقدة وعسيرة حتى على المثقفين. ولم تكن ثمة وسائل للمواصلات الا حيث توجد الانهار والاقنية. واكثر الناس فريسة للمجاعة لا يعنون الا بما يؤمن لهم قوتهم اليومي.

ومع ذلك فان سون كان يحاول اقامة شكل من الحكم يقتضي وجود سكان متعلمين يهتمون بالشؤون العامة . بل هنالك ما هو اعظم من ذلك : لقد كان عليه وعلى انصاره ان يعملوا على ولادة الشعور القومي ، لأن هذا الشعور كان مفقوداً الا عند القلة من ابنـــاء الجيل الطالع .

غير ان سون يات سن كان يفكر مع ذلك تفكيراً صحيحاً ، لانه قد تساءل أيهما خير لوطنه واقرب الى التحقيق: انتظار الشعب عشرات او مئات السنين حتى يتقدم ويتطور وينشىء الانظمة الديموقراطية التي هو في حاجة ملحة اليها ، ام انشاء هذه الأنظمة التي تحث خطى الشعب نحو التقدم والتطور وتأخذ بيده في سنوات الى الاهداف التي لا يستطيع بلوغها في ظل التطور البطيء الذي تؤخره قوى الاستبداد وتحول دونه الا في مئات السنين .

على أن وضع السؤآل على هذا الشكل لم يكن صحيحاً، لان الثورة لا يمكن ان تنجح في قطر من الاقطار، اذا لم يكن الشعب مستعداً لها مؤمناً بضرورتها ، وهي تفرض نفسها فرضاً حين تصبح الحاجة اليها قوية ملحة . وعلى هذه الحاجة التي كانت جماهير الشعب تشعر بها ولا تستطيع التعبير عنها ، كان سون يات سن ورفاقه يعتمدون في سعيهم الى اشعال نار الثورة في البلاد ، عاقدين املهم بنوع خاص على مقاطعة كانتون ذات المـــاضي الثوري المجيد ، مستلهمين ثورة التيبانغ التي ما كاد زعماؤها ينادون « لتسقط اسرة مانشو » حتى تبنت نداءهم الجماهير الغفيرة ، وكادت هـذه الثورة تؤتي ثمارها لولا التجاء الامبراطور الى المساعدة الاجنبية الانكليزية

التي انقذت عرشه واطالت في عمر النظام الاستبدادي.

وواضح ان استلهام سون يات سن ورفاقه ثورة التيبانغ ، في خططها وشعاراتها الرئيسية ، لم يكن يعني ان ثمة قرابة فكرية او اجتماعية بين ثورة التيبانغ ولاسيما في اول امرها ، والثورة التي اراد هؤلاء الشبان المجددون اضرام نارها . فقد كانت تلك في بدئها حركة دينية قام بها رجل مختل الشعور يدعى هونغ سان تسين اعتنق المسيحية وادعى انه ملك السماء ، فتبعه الفا رجل وجعلوا يطوفون القرى فيحطمون الأصنام ويدعون الى عبادة الله ، وشجعتهم على ذلك بعض الجمعيات التبشيرية ، ولكنهم ما لبثوا حتى سيطرت عليهم الحماسة الدينية ، فابتدعوا طقوساً غريبة ، وقالوا ان هونغ سان تسين هو الروح القدس . على ان هذا كله لم يمنع الجماهير الشعبية من الالتفاف حولها ، عندما نادت باسقاط اسرة مانشو ، قائلة ان سقوط هذه الاسرة المالكة يقيم في البلاد سلطان التيبانغ ، أي السلام العظيم ، أي ملكوت السماء ! ثم استطاعت هذه الجماهير تحويل الثورة عن مجراها الاول ، وجعلها حركة سياسية واجتماعية ، فتعاظم أمرها واستولى انصارها على مدن وقرى عديدة ، وفي سنة ١٨٥٣ احتلوا مدينة نانكين وشرعوا بالزحف على بكين العاصمة الامبراطورية . وحينئذ عمد الانكليز الى مساعدة الامبراطور ، حرصاً على مصالحهم التجارية ، فقمعت تلك الثورة بعد ان ذهب ضحيتها عدة ملايين من الصينيين .

لقد كانت الصلة الوحيدة التي تصل بين هؤلاء الشبان المجددين المتحمسين ، وثورة التيبانغ ، كره الاسرة المالكة وايقاظ هذا

الكره في قلوب الجماهير الشعبية الرازحة تحت نـــير الاستبداد . وقد طفق الدكتور سون ورفاقه القليلون يدعون للثورة سراً ، ويعدون لها العدة ، ويجندون أمثالهم من الشبان المثقفين ، حتى اذا ما خيل اليهم ان الوقت قد حان لاعلان ثورتهم ، قرروا الاستيلاء على مقر قيادة الجيش في ياماك ، وتوزيـــع الأسلحة والذخائر المخزونة فيها على أعضاء حزبهم ومن يتبعهم من ابنـاء الشعب ، واثقـــين بان هذه البادرة ستجمع حولهم كثيراً من الانصار والمؤيدين .

ووضع الثائرون خطة الاستيلاء على مقر قيادة الجيش ، ودفع كل منهم ما يستطيع من مال لشراء الاسلحة اللازمة لهم ، وباع لوك هوتونغ في سبيل ذلك كل ما يملك من عقار وحلى ، وبدأت صناديق الاسلحة ترد الى دار « جمعية التربية » على انهـا صناديق اسمنت ، وأعد كل شيء لليوم المنتظر حتى المقصات الـــتي كانوا يزمعون قص شعورهم بها عند أول انتصار يحرزونه ، رمزاً لانعتاقهم من نير الاسرة المالكة ، لأن ارسال شعر الرأس على شكل ضفائر كما كان شائعاً حينذاك ، هو زي غريب أدخلته اسرة مانشو على الصين .

وبينما أعضاء « جمعية التربيـــة » يتأهبون في تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٩٥ للقيام بالانقـــلاب ، اذا بالجواسيس ينقلون الى السلطة ان ثمة ثورة تعد وسلاحاً قد جمع في مقر هـذه الجمعيه ، ويشعر لوك هو تونغ ، ذلك الصديق الوفي والثائر الجريء ، بان أمرهم قد افتضح ، فيدعو سون يات سن الى مغادرة كانتون ،

ويبقى هو وبعض الثائرين في مقر الجمعية لاحراق الاوراق ودفن الاسلحة ، ولكنهم ما كادوا ينتبهون من المهمة الاولى ويشرعون في الثانية ، حتى دهمهم رجال الجيش واقتادوهم الى السجن، فعذبوا عذاباً شديداً مات أحدهم تحت وطأته ثم اعدم الأربعة الباقون في ساحة السجن ، فكانوا أول قافلة من شهداء الثورة الصينية .

اما سون يات سن فقد ذهب الى هونغ كونغ متخفياً ، فأقام عند بعض أصدقائه ، بينما اطلقت السلطات جواسيسها في أثره ، ووعدت من يقبض عليه بمكافأة مالية كبيرة . وقد سأل احد رجال القانون الانكليز هل تحميه السلطات الانكليزية اذا التجأ اليها ، فاجابه بالنفي ونصحه بمغادرة الصين بأقصى ما يستطيع من سرعة ، فأمده اصدقاؤه بالمال وسافر الى كوبه احدى المدن اليابانية القريبة من الحدود الصينية .

غير ان التجاءه الى اليابان لم ينقذه من الخطر الذي يتهدده ، لانها كانت قد عقدت مع الصين اتفاقاً على تبادل المجرمين ، ولا ريب في ان السلطة اليابانية اذا عرفته وقبضت عليه ،ستبادر الى تسليمه للسلطة الصينية التي تطارده . ومن ثم عمد سون الى قص ضفائره وارسال شاربيه والتزيي بزي اليابانيين ، وارتحل الى هونولولو في جزر هافاي ، حيث سبقته امه وزوجته واولاده والتجأوا عند أخيه آه مي هرباً من الاضطهاد .

بلغ سون يات سن هونولولو في مطلع سنة ١٨٩٦ فلبث عدة اشهر جعل يستعيد خلالها صلاته باصدقائه القدماء ، ويعقد اواصر الصداقة مع آخرين . وكان الصينيون القاطنون في جزر هافاي ،

وغيرهم من المهـــاجرين والمغتربين ، اكثر تحرراً من مواطنيهم واكثر تقبلاً الاراء الجديدة، فوجدت مبادؤه الثورية أرضاً خصبة بينهم ، ومـا لبث ان عقـــد اجتماعاً حضره ثلاثون شاباً منهم ، فأسسوا منظمة وطنية تهـــدف الى قلب الحكم في بلادهم وانشاء حكومة جمهورية ، ودعوها « جمعيـة التقدم الصينية » ، وانتخبوا الدكتور سون رئيساً لها ، ثم أقسموا على الوفاء لمبادئها وكتمان اسرارها وبذل كل ما يستطيعون لتحقيق اهدافها . وسرعان مـا تكاثر اعضاء الجمعية ، وأنشأ الشبان منهم يتلقنون تدريباً عسكرياً في دار احدهم ، على يد ضابط دانماركي يدعى فيكتور باخ .

وقد استطاع سون ان يجمع ستة آلاف دولار للقضيـة التي يعمل من اجلها ، ثم ارتحل الى الولايات الاميركية المتحدة، واخذ يتنقل في المدن التي يكثر فيها المهاجرون الصينيون ، داعيـاً اياهم الى مناصرة الجمعية التي يرأسها ، معلناً ان هذه الجمعية تريد ان تجعل من الصين جمهورية قوية تأخذ بمبادىء الحرية وأساليب المدنيـة ، وان الانقلاب الذي تنشده لا يمكن ان يتحقق الا اذا قام الصينيون بثورة وطنية شعبية على غرار الثورة التي قام بهـا الاميركيون للانعتاق من الاستعمار الانكليزي . فكان الصينيون من التجـار والعمال يستقبلون دعوته بحماسة كبيرة ، ويعلنون تأييدهم لرأيـه ، واستعدادهم لمناصرة الجمعية التي تعمل على تحقيق هـــذا الانقلاب العظيم في وطنهم .

وبينما كان يتنقل في المدن الاميركية مبشراً بآرائه الثورية ، اتصل به ان وزير الصين في واشنطون يدبر مؤامرة لاختطافـــه

واعادته الى بلاده ، وكان يعلم ماذا تعني عودته الى الصين بعد انتشار دعوته ، فرحل الى لندن في ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٩٦ وحل ضيفاً على استاذه وصديقه القديم الدكتور كانتلي الذي لقنه الطب في مدرسة هونغ كونغ .

وكان سون يتنقل دائماً باسماء مستعارة ، ويبذل جهده لتضليل الجواسيس ، ولكنه كان في انكلترا اقل تقية وحذراً . فبينما هو مار باحد شوارع لندن ، في الحادي عشر من شهر تشرين الاول (اكتوبر) استوقفه احد الصينيين وسأله أهو صيني أم ياباني ، فأجابه انه صيني ومن مقاطعة كانتون ، فقال الرجل انه كانتوني ايضاً ، وسار الى جانبه قليلاً ، واذا هما بصيني آخر يلاقيهما مستبشراً فيرافقهما ويدعوهما الى منزله للتدخين سوية ، فيتردد سون في اجابة الدعوة لأنه على موعد مع الدكتور كانتلي ، ولكن المواطنين الغريبين يصران على ذلك ويناشدانه قبول دعوتهما ، ثم يذهب الاول منهما ويحل محله صيني آخر ، ويتابع الثلاثة سيرهم وهم يتحدثون عن الصين في حنين عظيم حتى يقتربوا من دار كبيرة قد فتح بابها على مصراعيه ، واذا بالرجلين يمسكان بالدكتور سون من يمين ومن شمال ويدفعان به الى داخل الدار ، ثم يغلقان الباب بالمزلاج ، فيدرك فجأة انه بات سجين السفارة الصينية .

والحق أن سون قد استدرج الى السفارة الصينية واعتقل فيها . وقد أبلغه السير هاليدي ماك كارتني المستشار الانكليزي في السفارة ان اعتقاله سيستمر حتى تصل الباخرة التي ستنقله الى الصين . ثم ارسلت السفارة احد رجالها لاحضار اوراق سون من منزل الدكتور

كانتلي فشك الدكتور في الرجل وابى تسليمه اياها ، ولو فعل لقضي على الكثيرين من اعضاء « جمعية التقدم » في الصين ، لان جميع اسماء الاعضاء كانت مدونة في تلك الاوراق .

ولبث سون معتقلاً اثنى عشر يوماً في غرفة صغيرة تحت حراسة شديدة ، حتى كاد يقنط من النجاة ، ويستسلم للمصير المظلم الذي ينتظره . ويا له من مصير مظلم حقاً ... فان السلطة الصينية كانت تخص أمثاله من الثائرين بقصاص وحشي ، اذ يبدأ رجالها بوضع رجلي الثائر في مقمطة ويضربون الكعبين بمطرقة ضخمة حتى يسحقونهما سحقاً ، وبعد هذا يسملون عينيه باقتلاعهما من محجريهما ، ثم يقطعون الجسم ارباً ارباً لئلا يستطيع احد اخذ الجثة لدفنها .

وكان سون قد ألقى الى الشارع من نافذة الغرفة التي اعتقل فيها ، عدة رسائل موجهة الى الدكتور كانتلي . وأرفقها ببعض المال مكافأة لمن يوصلها لصديقه . الا ان احدى هذه الرسائل قد وقعت في يد خادم بالسفارة ، فسدت النافذة سداً محكماً ، واستحال عليه القاء رسائل اخرى ، فحاول شراء احد الخدم الانكليز الذين يعملون في السفارة ، فرفض الخادم خيانة رؤسائه ، وحدث زوجته مساء بما كان من أمر السجين الصيني ، فاشفقت المرأة على السجين وكتبت للدكتور كانتلي رسالة قالت له فيها : « ان أحد اصدقائك سجين في السفارة الصينية منذ الأحد الماضي ، وسيرسل الى الصين حيث يشنق حتماً . واذا لم يطرأ طارىء مباغت ، فانه سيساق الى هناك دون أن يدري به أحد . لا أستطيع ان اوقع هذه الرسالة ، ولكني أرجو ان تصدق ما أقوله لك ، ومهما

أردت ان تصنع في هذا السبيل فيجب ان تصنعه باسرع ما تستطيع والا جاء متأخراً . أما اسم هذا الصديق فاعتقد بانه سان يان سن»
وضعت المرأة هـــذه الرسالة المغفلة على عتبـــة دار الدكتور كانتلي عند منتصف الليل في اليوم السابع عشر من تشرين الأول (اكتوبر) ودقت الجرس دقات عدة متواصلة ثم توارت تحت جنح الظلام ، فأفاق الدكتور من نومه وأسرع الى فتح الباب فوجد الرسالة ولم يجد كاتبتها ، وما كاد يقرأها حتى ارتدى ثيابه وانطلق الى سكوتلاند يارد فأطلع رئيسها على الرسالة وطلب منه التدخل لانقاذ صديقه سون يات سن ، فاجابه رئيس الشرطة ان هذا الأمر ليس من اختصاصه ، فاسقط في يده وقفل عائـــداً الى البيت ، ولكن ما كاد الصبح ينبثق حـــتى عاد أدراجه الى سكوتلاند يارد وأخذ يرجو موظفيها مساعدته على اطلاق سراح سون ، فلم يعره الشرطة السريون اهتمامهم وحسبوه مجنوناً .

والحق ان ذعر الدكتور كانتلي ولهفته كانا عظيمين ، لانه كان يخشى ان يفوت الوقت فلا يستطيع انقاذ سون من الموت . فلما يئس من حمل رجال سكوتلاندیارد على التدخل في أمره ، هرع الى وزارة الخارجية ، وتوسل بصديق له هناك ، فابلغ الأمر الى رئيس الوزارة اللورد سالسبوري ، وعمل هذا على انقاذ سون يات سن .

ولم يكن الانكلـــيز يستطيعون اقتحام السفارة الصينية ، فأحاطوها برجال الشرطة ليحولوا دون نقله الى الباخرة . وكان السفير الصيني قد زعم ان سون يات سن مجنون ، وان الضرورة تقضي بارساله الى بلاده مخفوراً ، ولكنه حين رأى ان أحـداً لم

يصدق هذا الزعم ، وأن نقل اسيره الى الباخرة لارساله الى الصين قد بات مستحيلاً ، لم يجد بداً من اطلاق سراحه .

وكانت الصحف الانكليزية قد تحدثت باسهاب عن اختطاف الزعيم الصيني واعتقاله في السفارة الصينية ، منذ بدأ تدخل الحكومة البريطانية بشأنه للافراج عنه ، ثم جعلت تتابع قضيته وأخباره يوماً فيوماً ، وما لبثت أن بشرت الرأي العام باطلاق سراحه ، فكان ذلك أعظم دعاية له ، وعرف العالم المتمدن الأساليب الارهابية التي تنتهجها الحكومة الصينية ، وأصبح سون يات سن لدى ملايين الناس في مشرق الارض ومغربها بطلاً كبيراً ومناضلاً عظيماً في سبيل وطنه وشعبه . ولكن بعض الصينيين المحافظين لم يكتموا دهشتهم لما سمعوه عن هذا الفلاح الذي يريد اسقاط الامبراطور عن العرش ، وقد طال عجبهم من تطاول ابن الأرض على ابن السماء !

اسمح لي بقتلك

ظل سون يات سن في لندن بعد حادث اعتقاله ، يدرس تاريخ الحركة الدستورية في انكلترا وكل ما يمكن ان يفيده في المهمة التي نذر لها حياته . ثم ارتحل الى القارة ، فأقام في باريس وقتاً قصيراً ، وتنقل في بعض عواصم اوربا . ولكنه كان يشعر بضرورة العودة الى الشرق الاقصى ، فشخص الى سنغافورة واخذ يعدّ مواطنيه فيها لتقبل فكرته الرئيسية القائلة بان السبيل الوحيد الى اصلاح الصين ونشر المدنية فيها هو القيام بثورة شعبية تقضي على سيطرة آل مانشو ، ثم جعل ينظم جيشاً احتياطياً من انصاره شأنه في كل مكان ذهب اليه .

وكان بعض هؤلاء الانصار يشكون في تحقيق اهدافه بالسرعة التي يتخيلها ، ولكن الصينيين شعب عنيد اذا جاز هذا التعبير ، لا يكادون يؤمنون بفكرة حتى يهبوها من صبرهم وثباتهم وعزمهم ما يدهش ويذهل ، وكذلك اخذ أنصار سون يعملون جاهدين على نشر مبادئهم بكل وسيلة يستطيعونها استعداداً للانقلاب الذي ينشدون .

كان زعيم الانقلاب العتيد ، يعمل على التقريب بين القوى التي

انضوت تحت لواء الكفاح في بقاع مختلفة متباعدة ، موجهاً اياها بقيادته الحكيمة ورأيه الرشيد . وقد رأى ان اتفاق تبادل المجرمين بين الصين واليابان لا بد من ان يلغى في وقت قريب ، لتوتر العلاقات بين الدولتين ، فقرر ان تكون اليابان مقر القيادة العامة التي تضع خطط الثورة وتشرف على تنفيذها . فسافر الى طوكيو ويوكوهاما حيث يقيم عدد كبير من الطلاب الصينيين ، فاتصل بهم وبث فيهم فكرة التجدد والتحرر ، وطلب من بعض مؤيديه منهم التخصص في الكيمياء لصنع المواد المتفجرة للثورة . واتفق مع ياباني يدعى ناكيمورا على شراء مقدار كبير من الاسلحة ، ونقد الرجل ما معه من مال فذهب به ولم يعد ، وتبين للدكتور سون ان هذا الياباني الذي وثق به وسلمه اموال حزبه كان لصاً ، فبحث عنه في غير جدوى وعاد الى سنغافورة ساخطاً كئيباً للهفوة التي ارتكبها ، واخذ يجمع اموالاً جديدة من انصاره فيها .

غير ان اقامته في سنغافورة لم تطل ، فقد غادرها الى الصين ، وجعل يتنقل في وطنه متنكراً بزي حمال ، ثم بزي بائع متجول ، ثم بزي ياباني . ومن عجب ان السلطة لم تستطع اعتقاله على الرغم من المكافآت السخية التي وعدت بها من يهديها اليه او يسلمها إياه حياً او ميتاً .

ومن أطرف ما اتفق له خلال ملاحقة السلطة الصينية له ، وتنقله الدائم من مخبأ الى مخبأ ومن مدينة الى اخرى ، انه كان مختبئاً مرة في احدى السفن بنانكين ، فبينما كان خارجاً من حجرته ذات صباح ، اعترضه رجل رث الثياب وقال له : « اسمع يا سون ...

اني رجل بائس اعيل امرأة وولداً ... » فقاطعه سون قائلاً : « لقد فهمت ما تعنيه ... ان بعض الناس يعطونك مائة ريال لاغتيالي » قال الرجل : « بل اكثر مما ذكرت .. قال سون : « ألفاً .. » فقال الرجل : « بل خمسة آلاف .. وما انت الا رجل فرد ، والامبراطورة تستطيع ان تفتك بكثيرين ، وهي تكرهك كل الكراهية وتسعى لقتلك ، ولا بد من أن تظفر بك يوماً ، فلم يبق لاحد فائدة منك لانك مقتول حتماً ... فاسمح لي بقتلك لأغتني واعيش مع اهلي سعيداً ! »

فقال الدكتور سون : « صدقت فيما تقول .. انك تطلب رأسي وما هو بالشيء العزيز الغالي علي .. ولكن هب أنك قد نلت مني ما تريد ، وحملت رأسي غنيمة ، فهل تعتقد بان الوجهاء المسيطرين يتركون لك المال ولا يسلبونك اكثر مما غنمت ، فتغدو اشد فقراً ويبقى اولادك والملايين من اولاد الآخرين فقراء بائسين مئات من السنين ؟ اصغ الي يا صاح ، واعلم ان رأسي هو رأسك ، لاني لك واست لنفسي ، فهل ترضى بان تبيع رأسك بخمسة آلاف ريال ؟ »

وما زال يحدثه ، مبيناً له البواعث التي تدعوه الى الثورة ، ومفسراً الاسباب التي تحمل الامبراطورية على ملاحقته ، حتى انكب الرجل على قدمي سون يات سن يقبلهما ويلتمس عفوه ، فأنهضه سون وقبله في جبينه ، فمضى خجلان كئيباً يتعثر في اذيال الخزي والعار .. وما كاد يقبل المساء حتى عاد الى البحر ثانية ولكنه أقبل اليه هذه المرة معذب النفس مثقل الضمير ، مقتنعاً

بانه لن يكفر عن ذلك الطاجس المظلم الذي زين له تسليم القائد الحبيب لاعدائه ، الا بالموت . . فالقى بنفسه في اليم نجاة من عذابه وكفارة عن إثمـــه . .

على أن الذين أغرتهم الجوائز المالية التي وعد بها قاتـاو سون يات سن او معتقاوه ، لم يكونوا كلهم من طراز هذا البائس الحمس ، فثمة رجال سعوا للفتك به باصرار شديد ، ولم ينقذه منهم غير يقظة أصحابه ومناصريه . .

وكان مرة في كوخ صياد فقير بضاحية كانتون ، فقيل له ان السلطة اقامت في غابة قريبة من الكوخ اثنين من الجنود ، وامرتهما باطلاق الرصاص عليه حين رؤيته ، فلبث مختبئاً مكانه لا يغادره ، ثم قيل له ان الحكومة قد قتلت ذينك الجنديين لابطائهما في قتله !

وذات ليلة دخل حجرة كان يختبيء فيها بكانتون ، وخلع ثيابه وجلس يطالع اوراقه . . وكانت السلطة تترصده ، فلما بلغها دخوله تلك الحجرة ، أرسلت ضابطين واثني عشر جندياً لاعتقاله ، فأحاط الجند بالدار ودخل الضابطان الحجرة . .

ورأى سون الباب يفتح ويتسلل الضابطان منه ، فترك اوراقه واخذ كتاباً مقدساً وشرع يقرأ فيه بصوت عال ، فوقف الرجلان يصغيان صامتين خاشعين ، ثم سأله احدهما سؤالا ، فأجابه عليه بآياته وحكمته ، فسأله اسئلة اخرى فاجابه عليها بما ادهشه وانتزع احترامه ، ثم خاض الثلاثة في أشتات الاحاديث ، فروى سون للضابطين قصة كفاحه والاهداف التي يرمي اليها . .

وانقضت ساعتان كاملتان وهما يصغيان اليه باكبار واعجاب ،

ثم غادراه دون ان يلقيا القبض عليه ، وقالا للجنود الذين كانوا ينتظرونهاحول الدار: «ليس هذا طلبتنا.. ان هذا الا رجل صالح يداوي أسقام الناس ! »

ويقول سون انه جمع المقادير التي وعدت الحكومة بها من يظفر به ، فبلغت سبعمائة الف تابل ، أي ما يعادل مائة الف ليرة انكليزية !

لقد كان يتحدث في منازل الشاي وفي المنازل الخاصة ، عن ضرورة الاخذ باساليب التربية الحديثة ، فاذا وجد تأييداً لآرائه أخذ يتحدث عن مساوىء الملكية والحكم الاستبدادي ، ثم انتقل الى الحديث عن مفاسد الاسرة المانشوية وشرع يهاجم الامبراطور قائلًا : « من يكون هذا الرجل ؟ انه يسمي نفسه ابن السماء ، وأحرى به ان يدعى ابن الجحيم او ابن الشيطان ! انه يجبي منكم الضرائب والسياط تلهب ظهوركم ، فتحنون له الهامات . ولكن ماذا يصنع بأموالكم ؟ هل يبني بها المدارس ؟ هل يشق بها الطرق ؟ هل يؤسس المستشفيات ؟ كلا .. انه يشتري بها دنان الخمر المعتقة ، والنساء الفاجرات ، والاسواط التي يجلد بها أجسادكم ، والايدي التي تجلدكم بهذه الاسواط ! »

ولم يعرفه غير القليلين من اصدقائه الخلّص ، ومن المريدين الذين وثق بهم وألف معهم ، هنا وهناك ، جمعيات ثورية مستعدة للاستجابة لندائه متى حان الوقت لارسال النداء .

وكانت الاضطرابات الشعبية مستمرة خلال ذلك ، ولم يكن لهذه الاضطرابات في اكثر الاحيان اهداف بعيدة أو خطط منظمة

او نتائج ايجابية ، غير انها كانت دليلاً حياً على نقمة الشعب ، وتململه تحت النير الاستبدادي الجائر ، وكانت تهيىء التربة الصالحة لنمو البذور التي يزرعها سون في انحاء الصين .

وكانت الحرب القصيرة المدى التي نشبت بين الصين واليابان سنة ١٨٩٤ — ١٨٩٥ وانتهت بهزيمة الصين ، قد اقامت برهاناً لا مجال للشك فيه على ان القطر الصناعي الذي يتبنى أساليب الحياة العصرية ، يستطيع التغلب على القطر الزراعي المتأخر مهما تفوق هذا على ذاك في ضخامة العدد واتساع الرقعة . ثم كانت نتائج هذه الهزيمة ، وما أرغمت عليه الصين من تعويض مالي وتنازل عن قسم من أراضيها ، وما تبع ذلك من مطالبة الدول الاجنبية بأن تكون لها في الصين امتيازات خاصة . فاتجهت أذهان المفكرين وعامة الشعب الى ضرورة العمل على تجديد وطنهم وتحريره من أنظمته الاستبدادية القديمة ، ليستطيع الصمود في وجه التدخل الاجنبي والعدوان الاستعماري .

ولكن الآراء كانت تختلف في تعيين الاصلاح المنشود ، فبينما كان سون يات سن ورفاقه من المفكرين الثوريين يدعون الى تغيير عميق في المجتمع يتناول الاسس التي يقوم عليها ، ويعتمد على الثورة الشعبية في تحقيق الاهداف التي يرمي اليها ، نشأت طائفة من المفكرين تدعو الى الاصلاح التدريجي بالابقاء على شكل الحكم الملكي والسير به نحو الملكية الدستورية . وكان في طليعة هذه الطائفة من المصلحين مفكر يدعى كونغ يو واي وضع كتابا عن فضائل المدنية الغربية فلاقى انتشاراً كبيراً واستحساناً عظيما .

وقد أيد هؤلاء المصلحين فريق من رجال الدولة ومنهم الامبراطور الشاب نفسه ، اذ شعروا بالثورة التي تجيش في أعماق الشعب وتوشك أن تنفجر ، وأرادوا تجنبها بالاصلاح السلمي ، فعهدوا الى كونغ يو واي بوضع خطة هذا الاصلاح ، فاصدر في ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٩٨ عدة مراسيم تقضي بتغيير مناهج التربية العالية ، وتنظيم الجيش والدوائر الحكومية تنظيما حديثاً .

بيد أن نظام الاستبداد يأبى الا المساهمة في القضاء على نفسه ، برفضه كل اصلاح وتجديد ، وتعزيز مظالمه أكثر فأكثر ، واذكاء نقمة الناقمين عليه والكارهين له . فقد رفضت الامبراطورة الأرملة المخيفة تزو تسي ، ما أقره الامبراطور الشاب من إصلاح ، حتى قرر القائمون به من رجال الدولة اعتقال الامبراطورة ومستشاريها ، وتنفيذ خطتهم على الرغم منها .

الا ان الامبراطورة كانت أقوى شأناً وأعظم بأساً ، فبادرت الى الزحف على العاصمة بجيش مسلح ، واعتقلت الامبراطور في جناح خاص من البلاط ، وأمرت بسجن عدد ممن اشتركوا في المؤامرة ونفي عدد آخر ، أما من آزرهم من رجال الجيش فقد طردوا منه وصدرت بحق بعضهم أحكام شديدة ، وأما كونغ يو واي الذي تجرأ على مدح « البربرية » الغربية وحاول ادخال اساليبها في أنظمة التعليم والادارة ، فان الامبراطورة لم تستطع ان تطاله لهربه ، فأبادت اقرباءه ، ودمرت قبور أجداده ، والغت جميع المراسيم التي اصدرها .

وكان سون يات سن قد سافر الى الولايات المتحدة ، فلما

وافته هذه الانباء وجد فيها دليلاً جديداً على صحة آرائه، وأخذ يبشر بها في اجتماعات شعبية يحضرها الصينيون والاميركيون ويتحدث فيها باللغة الصينية أولا ثم باللغة الانكليزية، قائلاً لهؤلاء: «اننا نأمل ان نجد بينكم كثيرين من أمثال لافاييت الفرنسي الذي انتصر لكم يوم نضالكم في سبيل الاستقلال» وقائلاً لمواطنيه: «يجب علينا أن نبذل جميع القوى ونجرب جميع الطرق، لانشاء حكومة دستورية تجعل من شعبنا صاحب السلطة في بلاده. وان الشعب الصيني باسره لمناضل معنا في هذا السبيل، ما عدا العملاء الامبراطوريين الذين ينتفعون مادياً ومعنوياً من النظام السائد».

وفي أحد هذه الاجتماعات تقدم من سون يات سن شاب اميركي يدعى روبير لي فهنأه على خطابه وقال له: «اني ارغب في الانضمام اليك، وانا مقتنع بما تحدثت به الينا الآن وواثق من نجاحك»، ثم مد اليه يده وصافحه بحرارة وهو لا يعرف من يكون، ولما تركه سأل عنه صديقاً بجانبه، فقال له انه الكولونيل روبير لي وهو خبير في الشؤون العسكرية مخلص لقضية الحرية. فذهب سون في اليوم التالي لزيارته، وقال له: «اذا قدر لي النجاح، وعهد الي وطني بالأمر، اتخذتك لي مشيراً عسكرياً» فاجاب القائد الشاب: «اعتقد بانك ستؤجل ذلك حتى تغدو الرئيس المطاع، واحسب انك ستضطر الى قبول مساعدتي قبل ذلك الحين، لأنك لا تستطيع انشاء حكومة من غير جند. وفي رأيي ان الصيني يكون من احسن الجنود متى تعلم وتدرب».

وما لبث روبير لي ان اصبح مستشار سون الحربي، واتفق

الاثنان على انشاء فرق من الشبان الصينيين تدرب تدريباً عسكرياً وتسمى « شباب الاصلاح » وقد تاسست فعلاً فرق بهذا الاسم في عدة مدن اميركية ولا سيما في مدينة سان فرنسيسكو بلغ عدد المتطوعين فيها اربعة آلاف شاب ، فلما اتصل امرهم بالحكومة الصينية سعت لدى السلطات الاميركية لتحول دون تنظيمهم . على أن هذه الفرق لم تشترك قط في الحركات الثورية التي نشبت فيما بعد ، بل اشترك بها أفراد منهم كان بعضهم يقبل على التطوع من تلقاء نفسه وكان سون يات سن يستدعي الآخرين .

سنة ١٩٠٠

عادت الامبراطورة الارملة ، بعد قمع حركة الاصلاح سنة ١٨٩٠ ، الى حكم الصين من جديد . وكانت الهزيمة المخجلة التي منيت بها الصين في حربها مع اليابان سنة ١٨٩٤ — ١٨٩٥ خليقة بان تثبت لها ان قوة اليابان انما ترجع الى تبنيها الاساليب العلمية والصناعية التي اخذتها عن الغرب ، ولكنها لم تشأ ان تتعلم شيئاً جديداً تخرج به على سنة آبائها الاقدمين .

وقد كانت هذه المرأة الغريبة الاطوار محظية الامبراطور هسيان فانغ ، ثم أنجبت له ولداً ، فارتقت ، بوصفها اماً لولي العهد ، الى المركز الذي ترفعها اليه التقاليد ، وأضحت ، حين توفي الامبراطور ، سيدة الصين الحاكمة بامرها . وكانت تزوتسي متمسكة بالقديم تمسكاً شديداً ، تبغض كل اجنبي من العلوم والتقاليد ، وقد أزالت من طريقها كل من تسول له نفسه معارضتها ، وحكمت البلاد بيد من حديد .

وامام التدخل الاجنبي في شؤون الصين ، والعدوان الاجنبي المتوالي على اراضيها ، تداخل كره الاستعمار وتنبه الشعور القومي وذلك البغض للاجنبي لمجرد كونه اجنبياً ، ونشأت في سنة ١٩٠٠

حركة « البوكسر » التي عبرت عن هذه النزعات المختلفة بالحقد على الاجانب أياً كانوا ، واستغلت هذه الحركة شعور النقمة السائد في الاوساط الشعبية لارتفاع اجور الارض ، وتعاظم الضرائب ، وتوالي المجاعات والاوبئة والفيضانات ، وقامت بمذابح قتل فيها عدد كبير من الاجانب .

وأثارت هذه الحركة الدول الاجنبية التي رأت مصالحها الاجنبية في خطر شديد ، فتنادت الى حماية الحضارة البيضاء من الخطر الاصفر ، وتحالفت الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا والمانيا واليابان وروسيا ، وأنزلت جيوشها على الشواطىء الصينية ، وزحفت بها نحو العاصمة الصينية ، فما لبثت ان استولت عليها وهربت الامبراطورة وحاشيتها الى القسم الغربي من بلادها تاركة الجيوش الاجنبية تعيث في بكين نهباً وفساداً ، فكأنها ، كما قال المونسنيور هنري ريستاريك ، قبائل الهون المتوحشة لا جنود دول تزعم انها مسيحية .

وقد اضيف بذلك غل جديد الى عنق الصين ، إذ فرضت عليها غرامة باهظة ، واتسع نطاق الامتيازات الاجنبية فيها . اما من الناحية الداخلية فقد ازدادت الامور تحرجاً ، إذ ازداد سيل البضاعة الاجنبية فطردت البضائع والمنسوجات المحلية من الاسواق لرخصها وجودتها ، وتضاعف جشع الاشراف والاقطاعيين واستغلالهم جماهير الفلاحين لانهاكهم في المتع والمتارف التي حملتها الحضارة الغربية اليهم ، وارتفعت اجور الارض حتى زادت على نصف المحصول الذي يجنيه الفلاح منها .

بلغت سون يات سن هذه الانباء المحزنة وهو يواصل سعيه في البلاد الاميركية لتجنيد الاجناد وحشد القوى المختلفة ، استعداداً للثورة التي يريد القيام بها ، فقوّت النكبات التي حلت بوطنه من عزمه وضاعفت من نشاطه ، وجعل يبذل جهداً كبيراً لجمع المال الذي هو في حاجة اليه . وكان يقدّر هذا المال بمليونين وخمسمائة الف دولار ، ويحاول استدانته من المصارف الاميركية والاوربية ، باسم الحكومة الجمهورية المقبلة . ولما رأى ان هذه المصارف تريد ضماناً مادياً يكفل لها وفاء الديون ، وهو لا يملك مثل هذا الضمان ، عمد الى طبع سندات مالية قيمة كل منها عشرة دولارات ، ووزعت هذه السندات باسم «جمهورية شانغ هوا» وبتوقيع سون وان رئيساً وغنون هاب أميناً للصندوق ، على ان يستبدل بالسند الواحد عشرة دولارات ذهبية فور انشاء الجمهورية . وقام انصار سون ببيع هذه السندات من الصينيين في جميع أنحاء الدنيا ، فتجمع في صندوق الثورة مبلغ كبير من المال .

ويروي الدكتور سون امثلة رائعة على ما لاقاه من سخاء الصينيين في سبيل الثورة ، ومن ذلك قوله : « لقد لقينا نحن الصينيين من العالم ، ولاسيما من الاميركيين ، صَغاراً وشناراً . قالوا عنا اننا ادنياء كسالى . تلك رحمة شنعاء ، وما قالوها الا لأنهم لم يتبينوا الحقيقة . ان من المحسنين قوماً جادوا بكل ما استطاعوا الوصول اليه . حسبك اني لما كنت في فيلادلفيا خطبت في قومي ، وفي الصباح التالي جاءني الى النزل رجل صيني يحترف غسل الثياب ، فألقى بين يدي كيساً مملوءاً ذهباً ، ثم مضى من

غير ان ينبس ببنت شفة ، فعرفت ان الرجل اعطاني كل ما جمع من حطام الدنيا في مدى عشرين عاماً ».

واراد سون انشاء مركز لاركان حرب الثورة ، فلم يجد اقرب الى الصين من مدينة يوكوهاما اليابانية التي تضم عدداً غير قليل من الصينيين » . واخذ هذا المركز الرئيسي يتصل بفروع الحزب في كانتون وفي جميع الانحاء ، على اختلاف الاسماء التي تسمت بها ، استعداداً لانقلاب يجري في اواخر سنة ١٩٠٠

لقد ألف هذا الحزب التقدمي فرقة يقودها ضباط صينيون قام بتدريبهم خبراء يابانيون وقفقاسيون تحمسوا لمبادىء سون يات سن وتطوعوا للنضال في سبيلها . ولكن هذه القوة كانت ضئيلة ، ومن الجرأة الاعتقاد بان الشبان الذين يؤلفونها في وسعهم القضاء على الجيوش المانشوية . ولكن هؤلاء الشبان كانوا يحلمون ، مثلما حلم زملاؤهم سنة ١٨٩٥ ، بان الجماهير الشعبية ستبادر الى الانضواء تحت علم الثورة متى اعلنت واحرزت اول انتصاراتها . وقد ذهب بهم الخيال حداً اخذوا يفكرون معه في الطرق التي يجب عليهم انتباجها لتجييش تلك الجماهير الحاشدة بالسلاح والعتاد والمؤونة .

وحين تم في زعمهم إعداد كل شيء ، غادر الدكتور سون مدينة يوكوهاما الى هونغ كونغ ، ولكنه ما كاد يبلغ المرفأ حتى منعته السلطة البريطانية من النزول اليه بطلب من حكومة بكين التي بلغتها أنباء غامضة عن الثورة المنتظرة .

وكذلك كان شأن خازن الجمعية المؤتمن على اموالها ، اذ سبق سون الى هونغ كونغ فمنع من النزول اليها ونقل مخفوراً الى

سنغافورة حيث اعتقل وصودر المال الذي يحمله . فلحق به سون، وقضى وقتاً غير قصير حتى استطاع اقناع السلطـــة بأنه صاحب المال المصادر ، وبأنه في حاجة اليه لأغراض تجارية . ومـــا كاد يستعيده حتى رجع الى هونغ كونغ لموافاة ستمائة ثائر من انصاره قد اجتمعوا في واد قريب من ماكاو استعداداً للزحف على مقاطعة فوكيان متى وصل رئيسهم ، للاستيلاء عليها وتأسيس الجمهوريـة الصينية فيها ، واثقين بأن الثورة لن تلبث حتى تنفجر في المقاطعات الاخرى وتنضم هذه الى الحكومة الجديدة .

وقد سمح للدكتور سون هذه المرة بالنزول الى هونغ كونغ، ولكنه أُحيط فيها برقابة شديدة ادرك معهـــا انه يستحيل عليه الوصول الى حيث احتشد رفاقه ، فكتب اليهم بالتقدم الى مكان عينه لهم ووعدهم بموافاتهم اليه مهما اعترضه من عقبات .

غير ان هذه المدة التي قضاها الثائرون في الانتظار، كانت كافية للقضاء على خطتهم التي تعتمد على المفاجأة قبل أي شيء آخر ، اذ استطاع الجواسيس خلالها اكتشاف المكان الذي اختاره الثوار ليكون نقطة الانطلاق نحـو هدفهم ، فهاجمهم جيش نظامي مؤلف من اربعة آلاف مقاتل فاضطرهم الى الهرب ، وأخفقت بذلـــك المحاولة الثورية الثانية .

محاولات مخفقة

عاد سون يات سن وأركان حربه ، بعد هزيمة سنة ١٩٠٠ ، الى يوكوهاما ، وظل في اليابان حتى سنة ١٩٠٣ ، عاملاً على نشر مبادئه بين الطلبة الصينيين ، متصلاً بالمراكز الثورية الصغيرة التي أوجدها في قلب الصين ، مؤكداً للجميع ان الامل في اقامة النظام الجديد لم يتلاش ، وموحيا لهم الثقة العظمى بالغد .

وفي خريف سنة ١٩٠٣ قرر القيام برحلة حول العالم يبشر فيها بمبادئه ويجمع من جديد المال اللازم للثورة الجديدة ، فسافر الى هونولولو وأقام حفلة شعبية كبيرة القى فيها خطاباً هاماً أكد فيه مرة اخرى ان الثورة وحدها هي التي تنقذ الصين مما تعانيه من جور الاسرة المالكة والامراء المستبدين ، وقال اذا كان عشرون الف جندي اجنبي قد استطاعوا في حركة البوكسر الاستيلاء على عاصمة الصين التي تضم اربعمائة مليون نسمة ، فما ذلك الا لان هذه الملايين من الناس لا تثق بحكامها ولا تشعر بان الصين وطنها ، غير ان هذه الملايين الكثيرة خليقة بان تصبح قوة عظيمة متى غدت سيدة بلادها وصاحبة السلطة فيها .

وكان يدعو الى تنمية الروح الوطنية لدى جماهير الشعب ،

قائلاً ان هـذه الروح متى استيقظت حركت ملايين الصينيين وأثارتهم على الاسرة المانشوية فيسقطونها الى الابد ، وينشئون جمهورية ديموقراطية . وهاجم اعضاء جمعية بوف ونغ الذين كانوا يدافعون عن نظام الملكية قائلين ان انشاء ملكية دستورية يكفي لتحرير الصين ، فقال ان اقرار النظام الجمهوري امر لا بد منه لتحطيم القيود التي تحول دون سير الامة الصينية في موكب الحضارة والعمران .

ولبث في جزر هاواي ستة أشهر ، قضى اكثرها في مدينة كولا بجزيرة موي بين امه وزوجه واولاده الذين كانوا يعيشون في منزل اخيه آه مي . وفي ٩ آذار (مارس) سنة ١٩٠٤ ، استحصل على وثيقة تشهد بانه ولد في جزر هاواي ، فأصبح بحكم هذه الوثيقة اميركي الجنسية .

وفي آخر شهر آذار (مارس) اخذ يستعد للسفر الى سنغافورة ليرحل من ثم الى الولايات المتحدة ويعود منها الى الصين بطريق قناة السويس . وقد صرح قبل سفره ، خلافاً لعادته ، بانه يرجّح ان يبلغ الصين في الخريف ، ويشرع فيها بثورته الجديدة ، وبانه قوي الامل بالنجاح هذه المرة ، لأن وعي الشعب الصيني يتعاظم ، وقد نشر الطلاب الذين درسوا في البلاد الاجنبية بين افراده روح الوطنية والحرية ، ولأن الخطط التي اعدها اشد دقة وإحكاماً من الخطط الماضية .

وكان سون يعتقد بان تذكرة هويته الجديدة ستفتح امامه ابواب المدن الاميركية على مصاريعها ، فاذا هو يمنع من النزول

في سان فرنسيسكو ويحجر عليه في احدى السفن الراسية في المرفأ، لان الامير بو ـ لون كان مزمعاً على زيارة معرض اقيم في سان لويس، وقد رأت السلطات ، محافظةً على حياته ، ان تعتقل سون يات سن لئلا يحاول اغتياله ، ولم تطلق سراحه الا بعد انقضاء اسبوع كامل على مبارحة الامير سان فرنسيسكو . فلما استعاد الدكتور سون حريته اقام في الحي الصيني بالمدينة ، ونشط الى دعوة مواطنيه لاعتناق مبادئه ، فغضب شونغ قنصل الصين هناك ، ونشر في الصحف بياناً يحذر فيه الصينيين من سون يات سن ، واليك ماجاء في هذا البيان الطريف :

« بيننا الآن زعيم ثوري يهيج الشعب بتصريحاته الكاذبة . ولا ريب في ان الفئة المثقفة تدرك بسهولة ان هذا الرجل انما يهدف الى جمع المال لانفاقه على نفسه باسراف . غير اني اخشى ان يقع الجاهلون فريسة له . وأرى من واجبي بوصفي رئيساً هنا وقنصلاً عاماً ، حماية هؤلاء البسطاء . واني لأرجو المتقدمين في السن الذين لن يؤخذوا بتلك التصريحات الكاذبة ، ان يحوطوا على اخوتهم وابنائهم ويحذروهم من هـــذا الرجل الذي لا غرض له الا ابتزاز اموالكم وخلق المشاكل لكم » .

الا ان هذا البيان لم يمنع الدكتور سون من الدعوة الى سماع خطاب عن اوضاع الصين يلقيه في مسرح واشنطون ستريت ، ولم يحل دون اقبال الصينيين لسماع هذا الخطاب ، وربما كان حافزاً لبعضهم على ذلك . وقد كان لخطابه هذا وللحجج التي اوردها فيه تدليلاً على صحة دعوته وضرورتها، اثر كبير وطد مركزه في قلوب

مواطنيه ، ولكنه أحيط بمراقبة اشد ، فلما سافر الى سان لويس في طريقه الى نيويورك ، وجدت السلطة الاميركية ان من الضروري احاطة الامير الصيني بولون بفرقة من الشرطة السرية مخافة ان يعمد الدكتور سون الى اغتياله . على ان جميع الذين عرفوا هذا المناضل الرشيد وكتبوا عنه ، يؤكدون انه لم يفكر قط في اغتيال الامير ، ولم يحاول يوماً التخلص من خصومه بهذه الطريقة الفوضوية الغادرة .

وانتقل سون من ثم الى لندن ، وابحر منها الى الشرق الاقصى ، ومر بسنغافورة فتنكر فيها ودخل الصين لاعلان الثورة التي يعدّها . وكانت الجمعية التي يتزعمها قد تكاثر عددها ، وقيل انه اصبح لها اربعون فرعاً ، وكل فرع يضم الف عضو يعملون برئاسة لجنة منتخبة ، ويعقدون اجتماعاتهم سراً ، وينظمون حركتهم تنظيماً دقيقاً ، وجميع هذه الفروع يتصل بعضها ببعض بواسطة الرسل والسعاة .

وكان هؤلاء الشبان الثوريون يعقدون املا كبيراً على الجيش ، معتقدين بأنه على استعداد للانضمام الى الثورة متى عرف اهدافها وقدر لها النجاح . ولم يكونوا يخشون شيئاً بقدر ما يخشون انتشار الفوضى بين افراد الشعب على اثر اعلان الثورة ، فكان من خططهم المحافظة على النظام وقمع كل ميل انتهازي بين الثائرين ، كما ان الدكتور سون خشي ان يرغم التعذيب بعض اعضاء الحركة بما يعرفون من اسرارها ، اذا ما اعتقلت الشرطة الامبراطورية جماعة منهم ، فلم يدع الاسرار الرئيسية تتسرب الا الى فئة قليلة مختارة .

قضى سون ورفاقه أربع سنوات في تنظيم صفوفهم وإعداد العدة لثورتهم ، وفي اوائل سنة ١٩٠٤ وزعت الاسلحة على منظمات الحرب المحلية واستدعي الاعضاء المقيمون في الخـــارج ، واتفق الجميع على ان تبدأ القوة الرئيسية من الثوار بمهاجمة يامان للاستيلاء على مخازن الاسلحة فيها ، ثم تحتشد القوى القريبة من هذه المقاطعة فتعلن الحكم الجمهوري وتزحف شطر الشمال ، بينما تقوم فروع الحزب في كل مقاطعة بثورات محلية .

وانشأ مقر القيادة في يوكوهاما يستقبل الثوار ويرسلهم الى كانتون بطريق هونغ كونغ . وكان زعماء الثورة وعلى رأسهم سون يات سن يختبئون في كانتون ، ويوجهون الحركة بحذر وانتباه عظيمين ، وهم ينتظرون عشرة صناديق من الاسلحة فوق ما لديهم منها ، وقد عهد الى احد التجار بنقلها من هونغ كونغ على انها اسبنت من بورتلاند . وقد استأجروا باخرة لتقل من هونغ كونغ ثلاثة آلاف رجل مسلحين كانت مهمتهم المحافظة على الامن بينما يستولي سون ورفاقه المختارون على يامان ، فاذا تعذر عليهم ذلك هرع اولئك الآلاف الثلاثـــة لنجدتهم ، كما اتفقوا مـــع احد المراكب على نقل سبعمائة حمال رأوا انهم سيكونون في حـــاجة اليهم بعد الاستيلاء على يامان ومخازن الاسلحة فيها ، ولم يكن هؤلاء الحمالون على علم بما يراد منهم ، بل قيل لهم ان رجلا معيناً سيكون في انتظارهم على الميناء ليرشدهم الى العمل الذي ينبغي لهم القيام به .

لقد تم كل شيء بحسب الخطة المرسومة ، بدقة عظمى وكتمان

شديد ، فلم تفطن السلطات الصينية لشيء مما يجري في الخفـــاء . ولكن قبيل الموعد المعين للثورة بيوم واحـد ، وردت برقية من هونغ كونغ تقول ان الثلاثة الالاف رجلاً لن يستطيعوا الحضور اذ اشتبهت السلطة الانكليزية بأمرهم واوقفت الباخرة التي تقلهم ، فاضطرب القادة لهذا النبأ الذي يعرقل جميع اعمـالهم ، وبادروا الى ارسال برقية الى هونغ كونغ تأمر بمنع الحمالين عن السفر ، ولكن هذه البرقية فسرت تفسيراً مغلوطا ، واقبل الحمالون الى كانتون ، فلم يجدوا احداً في انتظارهم على الميناء ، فحـاروا في أمرهم ودخلوا المدينة يتجولون فيها . وكذلك وصلت الصناديق العشرة ، ولكن بينما كانت تنقل من البـاخرة الى الميناء كسر احدها وظهرت الاسلحة التي في جوفه . فلما اطلع نائب الملك على هذين النبأين ، امر بالقبض على الحمالين ، فاعتقل عدد كبير منهم واستجوبوا فـلم يجيبوا بشيء لانهم لا يعلمون شيئاً حتى الغرض الذي من اجله قدموا الى كانتون ، ولكن جهلهم وبراءتهم لم ينقذاهم من الجزاء الصارم ، فعـــذبوا واعدموا ليكونوا عبرة للمتآمرين على سلامة الدولة .

لم يجد سون يات سن بدأً ، أمام هذه المفـاجآت المتعددة ، من الاتفاق مع انصاره على التفرق والاختفاء . فلمـــا بدأت الشرطة الصينية بالبحـث عن المتـــآمرين لم تقـع لهـم على اثر . وحين داهمت المكان الذي كانوا يجتمعون فيه وجدته خالياً ، فاعتقلت كل من انفق وجوده حينذاك حول هذا المكان واعدمتهم ، وكانوا كلهم ابرياء لا علم لهم بالجرم الذي قتلوا من أجله .

وكان الدكتور سون آخر من غادر مقر القيادة ، وقد غادره قبل ان تداهمه الشرطة بوقت قصير ، برفقة شاب يدعى شانغ شو ، فانحدرا الى الشاطىء عبر ازقة ضيقة متعرّجة وصعدا الى احد القوارب التي ترسو هناك والتي تقود النساء اكثرها ، فتوسلا الى صاحبته ان تقلهما الى مكان عيناه لها وان تعطيها ثوبين نسائيين مقابل مبلغ كبير من المال . واغرى المال المرأة فوافقت على طلبهما واحضرت لهما ثوبين خلقين من ثياب النساء الفقيرات اللواتي يعملن على خفة النهر ، وانطلقت بهما نحو المكان الذي عيناه لها بينما كانا يرتديان الثوبين اللذين احضرتهما .

ووصل سون ورفيقه في زي امرأتين بائستين ، إلى كنيسة على مقربة من شامسان كان يختبيء فيها خمسمائة رجل من انصارهما في انتظار دعوتهم الى كانتون ، فأطلعاهم على الظروف الطارئة التي أدت الى اخفاق خطتهم وضياع جهدهم ، وعادا من ثم الى هونغ كنغ على مركب يقل عدداً غير قليل من المسافرين ، وهما لا يزالان في زيهما النسائي ، وقد ارسل سون يات سن على ظهره ضفائر مستعارة ، مثلما فعل غير مرة اثناء تنكره ، وهو امر تساعد عليه القبعة الصينية الواسعة .

وفي هونغ كونغ افترق الرفيقان ، فسافر سون الى سنغافورة ، وقفل شانغ شو عائداً الى هونولولو وكان قد اقبل منها تلبية للدعوة التي ارسلت اليه للمساهمة في تحطيم النظام القديم .

●

اخفق سون يات سن للمرة الثالثة في اشعال نار الثورة في

وطنه واعلان النظام الجمهوري ، واخذ يهيء محاولة رابعة تكون اكثر تنظيما واكبر أملاً في النجاح .

وكانت الاضطرابات المتعاقبة ، والحرب الروسية اليابانية التي نشبت سنة ١٩٠٥ وانتهت بانتصار اليابان واقتطاعها جزءاً من الاراضي الروسية ، وتنبه الشعور القومي والوعي الاجتماعي — حافزاً للامبراطورة الارملة ومستشاريها على التفكير في المبادرة الى شيء من الاصلاح ، فأوفدوا الى اوربا واميركا بعثة من ابناء الاشراف لاقتباس الانظمة التي يحسن الاخذ بها ، فوضعت هذه البعثة سنة ١٩٠٦ تقريراً مسهباً عن مشاهداتها واقتراحاتها ، واعلنت السلطة بناء على هذا التقرير ، انها ستعمد الى وضع دستور للدولة ، وتعيد النظر في القوانين السائدة ، وتصلح من انظمة المالية والبحرية والجيش ، وتدخل برامج التعليم الغربية في بعض المدارس .

ولا ريب في ان السلطة لو نفذت هذه الوعود ، لحققت قسماً من برنامج التقدميين الثائرين على الاوضاع السياسية والاجتماعية . ولكن سون يات سن ورفاقه كانوا يشكون في اخلاص الامبراطورة ومستشاريها ، ويعتقدون بانهم انما يميلون الى الاستبداد بطبيعة ظروفهم الاجتماعية فبقاؤهم على رأس الحكم ، مهما طليت به واجهته الخارجية من الوان زاهية مموهة ، سيجعل منه حكماً استبدادياً جائراً .

والحق ان الدكتور سون كان جمهورياً متطرفاً لا يقبل بالنظام الجمهوري بديلاً ، لانه يرمي الى تهديم نظام الاقطاع ، ويرى في

الملكية دعامة قوية لهذا النظام ، فجعل يواصل ورفاقه نضالهم لنشر الاضطراب والتمرد في انحاء البلاد ، بينما كانوا يعدون محاولة جديدة لقلب الحكم .

وفي منتصف سنة ١٩٠٧ تم الاستعداد لهذه المحاولة الرابعة ، ولكن منظميها غيروا خطتهم هذه المرة . فقد كان هدفهم الاول في المرات السابقة مهاجمة مركز قيادة الجيوش الصينية في يامان للاستيلاء على مخازن الاسلحة والذخائر ، فأخفقوا في بلوغ هذا الهدف البعيد المنال ، اما الآن فقد اعتزموا الشروع في ثورتهم بمنطقة يونّان الواقعة في شمال منطقة تونكن الفرنسية .

واتفق في اوائل تلك السنة ، نشوب عدة اضطرابات من تلك الاضطرابات الكثيرة التي تكاد تكون متواصلة والتي كانت تنتهي دائماً باعدام القائمين بها ، ولم يكن لها غير نتيجة ايجابية واحدة هي التدليل على النقمة التي تجيش في اعماق الشعب . فاغتنم سون يات سن ورفاقه هذه السانحة ، وارسلوا نداء الى جميع انصارهم في جزر هافاي وسان فرنسيسكو وسنغافورة واليابان وغيرها من الاقطار التي تألفت فيها جمعيات صينية ثورية ، للحضور الى مقر القيادة العامة في يوكوهاما ، حيث تلقوا التعليمات اللازمة وارسل كل منهم الى المركز المعدّ له .

وفي شهر تشرين الاول (اكتوبر) بدأ الثوار زحفهم على منطقة يونان ، فكانت مفاجأة عظيمة تساقطت خلال الدهشة التي تركتها في الاوساط الرسمية المحلية ، عدة مدن صغيرة في ايدي الثوار ، ولكن ما كاد هؤلاء يصطدمون بالجيوش الامبراطورية

التي هرعت لايقاف زحفهم ؛ حتى وجدوا ان معداتهم الحربية قد نفدت ، وان خير ما يفعلونه الهرب من وجه القوى النظامية التي تصليهم بنارها المتواصلة ، فصدر امر القيادة العليا للثائرين بالفرار .

وغادر سون يات سن ساحة المعركة مع رفيق له ، فوصلا الى احدى القرى القريبة ، فوقعا هناك على متسولين ، فعرض سون عليهما ان يتخليا لهما عن ثيابهما مقابل عشرين دولاراً ذهبياً ، ففرح المتسولان بهذه الثروة المفاجئة ، ودخل الاربعة الى احد الاكواخ فارتدى الدكتور سون ورفيقه ثوبي المتسولين ، ولطخا وجهيهما بالوحل ، واتجها الى سونغ كوي حيث رحلا على ظهر سفينة صينية الى هونغ كونغ .

وهكذا أخفق سون يات سن للمرة الرابعة في اشعال نار الثورة في الصين . وفي كل مرة كان الثوار يتشتتون ويعودون الى الكفاح السري والعمل في الخفاء لاعداد محاولة جديدة لقلب الحكم . وفي كل مرة ايضاً كان بعض اصدقاء الدكتور سون يحاولون اقناعه بان الجهد الذي يبذله في هذا السبيل هو جهد باطل عقيم . لان جذور الملكية والاستبداد متأصلة في اعماق الصين ولا امل في اقتلاعها . وخير له ان يسلك نهجاً آخر في الحياة .

ولكن عبثاً كان هؤلاء الاصدقاء يحاولون ادخال الشك والقنوط الى قلب الثائر العظيم ، لان يقينه ورجاءه كانا يقومان على اسس راسخة من العلم والعقيدة ، والثقة بالشعب الذي يتعاظم وعيه يوماً فيوما ، والايمان بمستقبل الحرية في وطنه وفي العالم أجمع .

وسرعان ما اثبتت الايام انه كان على حق .

ميلاد الحرية

توفيت الامبراطورة تزو تسي سنة ١٩٠٨ ، واراد الوصي الذي خلفها في ادارة البلاد ، ارضاء العناصر التقدمية ، او تهدئتها ، فأنشأ مجلساً نيابياً انتخب اعضاؤه بالتصويت المحدود ومجلساً للشيوخ عين اعضاءه بنفسه .. فكان النظام النيابي الذي تفضلت الملكية بمنحه للأمة ، اضحوكة كبرى ، كما تخيل الدكتور سون .

وكان الرأي العام قد أضحى أعظم وعياً من قبل واكثر اهتماماً بشؤون البلاد ورغبة في اصلاحها ، لانتشار الثقافة بين افراده ، وتكاثر عدد الصحف الصينية . فقد أنشئت في شنغاي سنة ١٨٧٠ اول جريدة صينية ، وأنشئت في هونغ كونغ سنة ١٩٠٠ أول صحيفة ثورية ، ولكن لم تقبل سنة ١٩١٠ حتى كان عدد الصحف التي تصدر باللغة الصينية قد أضحى خمسمائة جريدة ومجلة .

ولم يكن المتعلمون وحدهم هم الذين يطلعون على هذه الصحف ، بل كان عدد كبير من الاميين الذين تزيد نسبتهم على تسعين في المائة من مجموع الامة ، يشاركون المتعلمين في مطالعتها والانتفاع بما تنطوي عليه من توجيه وطني واجتماعي ، إذ كانوا يجتمعون في المجالس العامة والخاصة ، وفي الجمعيات السرية ومنازل الشاي ، حول

اولئك الذين يحسنون القراءة فيتلون عليهم الانباء والمقالات التي تهيب بهم الى التحرر من نير الاستبداد .

ويجب التنويه بما كان المثقفين ، حتى الذين تخرجوا منهم في المدارس التبشيرية ، من اثر فعال في الدعوة الى التجديد ، ونشر مبادىء الحرية بين جماهير الشعب ، وتنبيه هذه الجماهير الى حقها المهضيم ، وتنمية شخصيتها ، وتوسيع آفاقها ، واذكاء روح الوطنية في صدورها .

وبينما رفاق سون يات سن وانصاره ينشرون بين افراد الشعب الصيني مبادىء الحرية والديموقراطية ، كان هو يناضل في سبيلها خارج الصين ، متنقلاً بين سنغافورة وتونكين وهونغ كونغ واليابان وجزر هافاي والقارتين الاميركية والاوربية ، داعياً مواطنيه الى نصرته ، منظماً أعمال الجمعيات السرية التي أنشأها في كل مكان ، ومهيئاً كل ما يجب تهيئته للثورة المقبلة من خطة حكيمة ومن مال وسلاح ، ثم يعود الى يوكوهاما ليدرس ما تم تحقيقه في سبيل المحاولة الجديدة التي كان على يقين من انها المحاولة الناجحة حتماً ، لان الصين لم تعد تحتمل نيرها الفادح ، وهي تتململ تحته في انتظار يوم الخلاص ، وما من ريب في ان قسماً كبيراً من أفراد الشعب الناقمين ومن أفراد الجيش المتذمرين الساخطين سينضمون الى الثورة ويساعدون على نجاحها .

وكان الدكتور سون يتنقل سراً ، ويسافر باسماء مستعارة ، متنكراً كل حين بزي جديد ، فلما عاد الى اليابان للمرة الاخيرة نشرت احدى الصحف انه وصل الى يوكوهاما باسم آلوها ، ثم نشرت صحيفة اخرى ان في طوكيو رجلاً يدعي انه ياباني ويطلق

على نفسه اسم تاكانو وما هو الا الزعيم الصيني الشهير سون يات سن، فبادرت السلطة اليابانية الى التحقق من ذلك وانذرته بمغادرة اليابان ، فعاد الى الولايات المتحدة .

وبينما هو يتنقل في المدن الاميركية خلال صيف ١٩١١ ، للاتصال بالفرق الصينية التي كانت تتدرب فيها بارشاد الكولونيل روبير لي ، وافت الانباء بان الجمهورية الصينية قد اعلنت في مقاطعة يوشانغ ، وتلقى سون يات سن من رفاقه برقية يبلغونه فيها نبأ انفجار الثورة قبل الموعد المعين لها ، ويطلبون عودته فوراً الى الصين . فبادر سون الى اذاعة بيان موجه الى الشعب الاميركي ، عرض فيه مبادىء الثورة ، ودعا الى تأييدها ، ورحل لفوره الى لندن ، فحاول من جديد الحصول على قرض بقيمة نصف مليون جنيه من المصارف الاوربية او الاميركية ، باسم الجمهورية الصينية ، فابلغ مرة اخرى ان المصارف لا تمنح قروضاً مالية مقابل ضمانات سياسية .

كان سون يات سن يفكر في اعلان الثورة في سنة ١٩١٢ ، وكانت الجمعيات السرية تتلهف لتلقي اشارة بهذا الصدد من القيادة العامة بينما هي تعمل جاهدة لتهيئة العوامل التي تفضي بها الى النجاح . واتفق ان احدى هذه الجمعيات في هانغ كيو كانت تعمل في تحضير القذائف المتفجرة ، فانفجرت احداها في مقر الجمعية ، فاكتشفت السلطة امرها ، واقتحمت دارها ، فتمرد اعضاؤها على رجال السلطة وردوهم على اعقابهم ، فاستنجدت السلطة المحلية بقوى الجيش ، وبادرت القوى الثورية في تلك المنطقة فتجمعت

وزحفت على الشمال ، وسرعان ما امتد لهيب الثورة على ضفة نهر يانغ تسه ، واشترك فيها كل ناقم على الاستبداد ، وانضمت اليها فرق عدة من الجيش ، فما هي الا اسابيع قليلة حتى سقطت المقاطعات الجنوبية في ايدي الثائرين ، فأعلن هؤلاء تأسيس الجمهورية الصينية وأبرقوا الى سون يات سن يزفون اليه البشرى ويدعونه الى وطنه . فكان الانتصار السريع الذي احرزته الثورة ، مفاجأة للقائد نفسه ، ودليلاً على ان الامة كانت تتمخض بها وتنتظرها منذ وقت طويل .

وفي الواقع ان ثورة سنة ١٩١١ التي قلبت نظام الحكم في الصين وأسست الجمهورية الصينية ، لم تكلف الامة غير بضعة آلاف من الضحايا ، بينما قتل ملايين من الناس في كل من ثورة التيبانغ وثورة ١٨٥٧ — ١٨٧٤ ، فمنذ انفجرت الثورة في العاشر من تشرين الاول (اكتوبر) حتى اعلان الجمهورية في الثاني من كانون الاول (ديسمبر) استولى الثوار على احدى عشرة مقاطعة .

ولا ريب في أن كره الاهلين للنظام القديم ، وانضمام قسم من الجيش الى الثوار ، هما اللذان ساعدا على انتصار الثورة بهذه السرعة العظيمة وبهذا العدد القليل من الضحايا في دولة يزيد عدد سكانها على اربعمائة مليون نسمة .

وعندما غادر سون لندن ، لم يجد حاجة الى السفر متنكراً كعادته ، فسافر باسمه الرسمي : سون وان . ورحل الى فرنسا ، ومنها الى سنغافورة بطريق قناة السويس ، فاستقبل لاول مرة استقبالاً شعبياً حافلاً . وسمته الجماهير الهاتفة له : محرر الصين ، وابا

الجمهورية الصينية ، وفرشت العذارى طريقه الى ارض الوطن بباقات يانعة من الزهر .

وما كاد يبلغ هونغ كونغ حتى ارسل الى حكومة واشنطن بياناً باهداف الجمهورية الصينية ، رجاء ان تسارع الولايات المتحدة الى الاعتراف بها ، ثم سافر الى شانغاي فاستقبلته الجماهير الشعبية استقبالاً رائعاً . وما هي إلا أيام خمسة حتى اجتمع مجلس الثورة في نانكين فقرر ان تكون هذه المدينة عاصمة للجمهورية وانتخب سون يات سن رئيساً لاكبر جمهورية في العالم .

وهكذا تحقق حلم الفتى المتمرد الذي حطم آلهة آبائه ، واخذ على نفسه تحطيم النظام الذي يسومهم الذل والاستبداد . واصبح ذلك الثائر الذي كان طريد العدالة وطلبة الشرطة ، وخاض كثيراً من الاهوال والاخطار ، وبذل جهداً جباراً متصلاً استغرق ربع قرن من حياته — رئيساً للجمهورية التي نذر نفسه لتأسيسها . .

ولكن هل انتهت بذلك مهمة سون يات سن ؟ وهل ينجح في بناء النظام الجديد مثلما نجح في تهديم النظام العتيق ؟ لا سيما وان آل مانشو لا يزالون يحكمون في بكين ، والشمال لا يزال موالياً لهم ، بل لا يزال للنظام البائد انصار من رجال الجيش ورجال الاقطاع ورجال الدين ، ليس في الشمال وحده بل في الجنوب نفسه ، على الرغم من استتباب الأمر فيه للثائرين!

هذا ما كان سون يات سن يفكر فيه وهو في الطريق الى نانكين ليشهد ميلاد الحرية في وطنه .

من بيت أبي ضُربت

رأينا ان نجاح الثورة بتلك السرعة يرجع الى عوامل عدة ، منها انضمام قسم من الجيش الى الثوار . وكان هؤلاء قد مهدوا لهذا الامر منذ سنوات عديدة بدعايتهم المستمرة في اوساط الجيش ولا سيما بين اعضاء البعثات التي كانت الحكومة الصينية ترسلها الى اليابان وغيرها من الدول الاجنبية لتلقي الفنون الحربية ، وقد وعد فريق منهم بالانضمام الى صفوف الثورة فور اعلانها ، مع الجيوش التي سيتولون قيادتها . حتى ان السلطة الصينية قد شعرت بروح التمرد تسري بين رجال الجيش فنزعت اسلحة عدد كبير منهم ، واستدعت « وان شيه كاي » فجعلته قائداً أعلى للجيوش الامبراطورية .

فلما نشبت الثورة ورأى وان شيه كاي قوتها واتساع مداها بدا له ان خير ما يصنعه هو التفاهم مع رجالها ، فأعلن تأييده لها ، وإن كان يعتقد بان الصين غير مستعدة للحكم الجمهوري ، وخير ما يلائمها في رأيه النظام الملكي الدستوري . الا انه ما كاد يجتمع بالدكتور سون حتى وافق على خلع الاسرة المالكة وتنفيذ برنامج الجمهوريين ، على ان يكون هو نفسه رئيساً للجمهورية ، وتم

الاتفاق بينهما على ان ينتخب سون للرئاسة ثم يتنازل عنها للقائد وان .

وفي اول كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٢ انتخب المجلس الذي تألف في المناطق الثائرة ، الدكتور سون يات سن رئيساً للجمهورية الصينية ، فوضع دستوراً موقتاً ، واصدر مرسوماً باقرار التقويم الاوربي محل التقويم الصيني ، ووجه الى حكومات العالم بياناً بمساوىء الاسرة المالكة والنظام القديم ، وناشدها الاعتراف بالجمهورية الصينية معلناً ان الحكومة الجديدة تعترف بجميع المعاهدات المعقودة مع الدول الاجنبية وتتعهد بالمحافظة على مصالحها وامتيازاتها .

وما لبث ان اعرب عن رغبته في التنازل عن الرئاسة للجنرال وان شيه كاي ، لاعتقاده بان اسناد هذا المنصب اليه خير ضمان على خلع الاسرة المالكة وتوطيد دعائم النظام الجديد ، لما له من نفوذ قوي في اوساط الجيش ؛ وعبثاً حاول رفاقه القريبون منهم والمغتربون البعيدون عن الصين ، تحويله عن رأيه هذا ، باحاديثهم ورسائلهم وبرقيات الاحتجاج التي انهالت عليه من كل مكان ؛ إذ كان يخشى أن يؤدي غضب وان شيه كاي الى عرقلة اعمال الثورة ، وبالتالي الى انهيارها ، وهو حريص كل الحرص على نجاحها وانتصارها باية تضحية كانت .

لقد كان سون يات سن مقتنعاً بان وان شيه كاي أقدر منه ، في تلك الظروف ، على خلع الاسرة المالكة ، لان القوة العسكرية لا تزال في يده . فلم ينفع رجاء رفاقه ، والحاح الشعب ، واصرار

جميع الاوساط الثورية ، في تحويله عن عزمه على التخلي له عن الرئاسة ما دام قد وضع ، دون تحقيق تلك الغاية ، هذا الشرط .

والحق ان وان شيه كاي ما كاد يطلع الامبراطور سوان تونغ على حقيقة الموقف ، حتى اذاعت الاسرة المالكة بياناً تعلن فيه تنازلها عن العرش تلبية لرغبة الشعب ! فاهتزت الامة الصينية لهذا النبأ الذي يبدأ به عهد جديد من حياتها وفصل حافز من حضارتها ، وبادر الدكتور سون ورفاقه الى زيارة مدافن الصينيين العظام ، فزف الى اولئك الأجداد الذين عاشت الصين في ظلال تعاليمهم آلاف السنين ، أن احفادهم قد شرعوا منذ اليوم في حكم انفسهم ، واتخذوا شرعة ديموقراطية جديرة بماضيهم العريق .

ثم اعلن للشعب الصيني في بيان رائع ان نانكين ستكون الآن عاصمة له ، وان وان آت اليها قريباً لاستلام مهام الرئاسة ، وختم هذا البيان بقوله :

« ان وان شيه كاي قد اعلن تأييده لقضيتنا وموافقته على مطالبنا . وهو اليوم صديقنا على الرغم من معارضته لنا بالامس . ولسوف يحييه عند حضوره شعب متحد ، أما انا فاني انسحب الى ميدان الحياة الخاصة ، لأكون مواطناً مثلكم ، محاولا ان أبذل خير ما تنطوي عليه ثقافتي لمصلحة الجمهورية . عاشت الجمهورية » .

كان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩١٢ ، وفي اليوم التالي ، تلبية لرغبة الدكتور سون والحاحه ، نتخب المجلس وان شيه كاي رئيساً للجمهورية الصينية ، وعين سون يات سن ، بناء على طلبه ، مديراً للسكك الحديدية ، لاعتقاده

بأن أحد العوامل الرئيسية في تأخر الصين وتفككها ، هو فقدان المواصلات بين مقاطعاتها المختلفة ، اذ لم تكن هنالك ، ما عـــدا في المرافيء والبقاع المجاورة لها ، أية طرق معبدة ، وكانت السكك الحديدية في الصين كلها لا تزيد عن عدة اميال . ولم يكن سون خبيراً في هذه الشؤون ، ولكنه كان مقتنعاً بضرورة الاهتمام بها ، حتى انه كان يقول ان النهضة الوطنية لا تتحقق الا اذا وجد في الصين مائة الف ميل من السكك الحديدية ، ومليون ميل من الطرق المعبدة .

غير ان الايام لم تبطىء حتى اثبتت للدكتور سون انه قـــد أخطأ في الركون الى وان شيه كاي ، والاطمئنان الى وعوده ..

والحق ان هذين الرجلـــين كانا على طرفي نقيض ، اذ كان أحدهما يمثل المدرسة القديمة برجعيتها واستبدادها ونفاقها وانانيتها ، ويمثل ثانيهما المدرسة الحديثة بتحررها وصدقها ووطنيتهـا المخلصة . فما كاد الأمر يستتب للماريشال وان حتى أخذ يستبد بـه ، معتقداً بان هذا الاستبداد صفة طبيعية من صفات الرئاسة ، شأن كل سخيف الرأي صغير النفس .

على ان الامر لم يقف عند هذا الحد ، بل تعـداه الى البرنامج الذي وعد بتحقيقه ، اذ أخذ يهمله اهمالا يدعو الى الشك ، وكان كل ما قام به في هذا السبيل تنظيم الجيش وتعزيز قوته ، متجاوزاً في ذلك الحد المعين له ، رافضاً نقـــل العاصمة الى نانكين بحجة الضرورات العسكرية التي تقضي ببقائه في بكين .

ودعي الدكتور سون مرة الى بكين فاستقبل استقبالا شعبياً

حافلاً ، فبعث ذلك الحسد والحقد في صدر وان ، لا سيما وان الزعيم الشعبي جاء يذكره بالوعود التي قطعها له ، وشعر سون بما يضمر له الرجل الذي وثق به ، فخشي ان يدس له السم او يقتله لسبب مختلق ، على طراز الأباطرة المستبدين الذين كان يقلدهم ويسلك سلوكهم في عهد الجمهورية والنظام الديموقراطي . وغادر سون بكين سراً ، وجعل يحذر رفاقه من وان، ويفكر واياهم في طريقة لانقاذ العهد الجديد من هذا المستبد الذي يقبض على ازمة الامور بما له من نفوذ عسكري قديم .

وما هي الا شهور اخرى حتى عقد وان مع اصحاب المصارف الاوربية قرضاً بقيمة ٢٥ مليون جنيه استرليني . وقد عقد الرئيس هذا القرض دون موافقة المجلس ، فغضب المجلس لهذا الخرق الصريح للدستور واعلن ان الامة لا تعترف بالقرض .

ثم تبين ان الرئيس قد انفق المال الذي استدانه في شراء اسلحة حربية من مصانع كروب وفي شراء رجال الحكم في المقاطعات الصينية لمكافحة « الاتحاد الثوري » الذي ضم بعد انتصار الثورة ، جميع الاحزاب والجمعيات التقدمية التي كانت تكافح الانظمة القديمة وتستوحي مبادىء سون يات سن؛ ثم تحول هذا الاتحاد الى حزب موحد اطلق عليه اسم الكومانتنغ اي حزب الشعب . فأثار ذلك نقمة الشعب الذي كان يرجو انفاق المال في سبيل الاصلاح الداخلي ، واصدر سون يات سن بياناً نعت فيه وان شيه كاي بالطاغية ، وقال انه يستخدم السلطة التي منحت له لخدمة اغراضه الشخصية لا لخدمة الجمهورية والنظام الديموقراطي ، وحذر الدول الاجنبية من ان تمد

له يد المساعدة. فعدّ وان هذا البيان خيانة وطنية ، واتهم الدكتور سون ورفيقيه يوتانغ فانغ والدكتور لي بالعمل على تفريق صفوف الامة وتشويه سمعتها ..

وبينما كان سون يوماً في دار الدكتور لي مع جماعة من انصاره ، إذ قرع باب الدار قرعاً عنيفاً ، وارتفع صوت رئيس الشرطة آمراً بفتح الباب ، فعلم الزعيم ان رئيس الجمهورية قد اصدر أمراً بالقبض عليه ، وايقن بانه سيرسل ، اذا ما اعتقل ، الى بكين ، فيحاكم ويعدم سراً . فاعتزم الهرب ، وشجعه رفاقه على ذلك . وفيما هو يغادر الدار من بابها الخلفي ، كان الدكتور لي يفتح الباب لرئيس الشرطة فينقض هذا واعوانه عليه وعلى جميع من في الدار ، فيقبضون عليهم ويرسلون بهم الى بكين موثقي الايدي مكمومي الافواه ...

اختبأ سون في احدى الخرائب حتى المساء ، ثم انطلق الى منزله متستراً بجنح الظلام ، ولكنه لم يدخله مخافة ان تكون الشرطة راصدة له هناك ، وذهب الى احد المنازل المجاورة عند صديقٍ له ، فعلم ان داره مراقبة وان زوجته قد استجوبت ، فغادره وهو على اشد ما يكون ألماً وذعراً . . وهو يقول انه لم يشعر ، حتى حينما اعتقل في دار السفارة الصينية بلندن ، بمثل ما شعر به آنذاك من هم ويأس ، لانه انما كان يطارَد بامر الحكومة التي قضى حياته في سبيل انشائها .

وقد قضى اياماً عدة وهو يتنقل متنكراً ، من بيت الى بيت ، عند اصدقائه المخلصين ، قبل ان ينتهي الى قرار ما . واتصل سراً

بالسلطات الفرنسية والانكليزية والاميركية كل بمفردها فأبت كلها حمايته . ثم اعتزم الذهاب الى الجنوب لرؤية صديقه الجنرال هوانغ سانغ . فمر بمنزله في ١٣ حزيران (يونيو) ، فاخبرته زوجته ان رجال الامن لا يفتأون يتحرون البيت بين يوم وآخر ، وان ضابطاً صينياً جاء احد الايام مع اعوان له ، فعاملها واختيها بشراسة ، وجر ابنتها المريضة من سريرها ، ثم اخذ يحطم أثاث المنزل ببندقيته ويهددها بحربته كي تدله على مقر زوجها وهي تقسم له بانها لا تعلم من امره شيئاً . ثم قالت له : « لا تعد الى هنا . بل اذهب عند صديقك هوانغ سانغ . ولا تدعهم يقبضون عليك ويفتكون بك كما يقبض على الكلاب ويفتك بها » .

وبعد مشقات واهوال جسيمة ، وصل سون متنكراً الى معسكر الجنرال هوانغ سانغ في مدينة موشوف ، فاتصل به واتفقا على مغادرة البلاد كل بمفرده ، على ان يلتقيا في ناكازاكي باليابان فيشرعا في تنظيم المقاومة واعلان ثورة جديدة .

وكان الجنرال هوانغ سانغ أسرع من رفيقه في بلوغ المكان المعين للقائهما ، الا أن سون لم يلبث ان وافاه اليه بعد مشقات وأهوال جديدة خاض غمارها في تلك الرحلة الطويلة ..

وما كاد يبلغ ناكازاكي حتى كتب الى وان شيه كاي رسالة اتهمه فيها بخيانة وطنه ، معلناً له انه سيناضل في سبيل تقويض سلطته الاستبدادية مثلما ناضل لتقويض العرش الامبراطوري .

حب .. وكفاح

عاد سون يات سن الى المنفى مرة اخرى ، ليناضل من جديد في سبيل مبادئه الوطنية والديموقراطية . وكان كثير من انصاره قد يئسوا من النجاح ، واعتقدوا بان من واجبهم الاكتفاء بخلع الاسرة المالكة وإقرار النظام الجمهوري ، وان كان هذا النظام لم يطبق الا تطبيقاً شكلياً ، ولم يشعر الشعب بتغير فيما يعاني من جور وطغيان . غير ان المتحمسين منهم لمبادىء الحرية ، لم يلبثوا ان حاولوا القيام بثورة جديدة في نانكين ، في شهر تموز (يوليو) سنة ١٩١٣ ، بعد ان غادر الدكتور سون الصين بوقت قصير ، فاذا بهذه الثورة تقمع بشدة ، ويستخدم رجال الامن في قمعها الاساليب الوحشية التي كانوا يلجأون اليها في العهد القديم .

ذلك ان وان شيه كاي لم يعمل ، مذ تولي رئاسة الجمهورية ، الا على توطيد مجده وتعزيز نفوذه ، مبعداً عن جهاز الحكم كل من لا يطمئن اليه ، واضعاً جميع الصلاحيات في أيدي أنصاره واصدقائه المقربين ، حتى بات من العسير على الديموقراطيين الصادقين القيام بثورة ناجحة إذا لم يعدوا لها العدة الوافية ويجندوا في سبيلها جماهير الشعب خلال وقت طويل .

وفي شهر تشرين الاول (اكتوبر) من تلك السنـــة ، اضطر وان شيه كاي المجلس ، بما لجأ اليه من وسائل الاغراء والتهـديد ، الى اعادة انتخابه رئيساً للجمهورية لمدة خمس سنوات . ثم أبعـد الاعضاء التقدميين المعارضين في هذا المجلس ، وحل المجالس المحلية ، وأصبح يتمتع بسلطة ديكتاتورية حقيقية . وفي سنة ١٩١٤ أعـاد النظر في الدستور السائد ، وجعل مـدة الرئاسة عشر سنوات ، ومنح الرئيس حقاً في تعيين خلفه ..

وفي سنة ١٩١٥ أعرب قادة الجيش عن رغبتهم في جعل وان امبراطوراً ، ونظمت في جميع انحاء الصين عرائض موجهـــة الى الرئيس يناشده فيها المواطنون الغاء الجمهورية وإقرار الحكم الملكي الدستوري ... ثم وضع الدكتور غودنوف الامـــيركي ، وهو إخصائي في الحقوق الدستورية ، وكان مستشاراً للحكومة الصينية ، تقريراً مسهباً أثبت فيـه ان النظام الملكي هو اصلح الانظمـــة للصين ..

وهكذا اضطر وان شيه كاي في مطلع سنة ١٩١٦ الى اصدار بيان يعلن فيه نفسه امبراطوراً ... تلبية لرغبة الشعب !

ولكن الشعب ما لبث ان أجاب على هذا البيان باضطرابات عنيفة شملت اكثر أنحاء البلاد ، ولا سيما المقاطعات الجنوبية والغربية منها ، وهددت مقاطعتـا يونّان وسيتشوان بالثورة ، واجتمعت وفود من المقاطعات الجنوبية في كانتون وألفت اتحاداً بينها واعلنت انفصالها عن الصين ...

فغضب وان حتى الجنون لهذه الانباء المثيرة توافيه وهو حديث

عهد بالمجد الامبراطوري ، ودخل على زوجته وهو شاهر سيفه ، وكانت نائمة مع ابنه الرضيع ، فقتلهما معاً .. ثم عمد في الثاني والعشرين من آذار (مارس) الى الغاء الملكية واعلان الجمهورية مجدداً ، بيد أن مشاكل الجمهورية قد زادت وتعقدت بعد تمرد الجنوب فما عتم ان مات في اول حزيران (يونيو) سنة ١٩١٦ مهموماً كئيباً ، وخلفه في رئاسة الجمهورية نائبه لي وان هونغ .

خلال تلك السنوات الثلاث ، كان سون يات سن يعيش في شنغاي ، متصلاً برفاقه القدماء ، ومحاولاً الاتصال بعناصر ثورية جديدة ، لاعداد انقلاب جديد يتناول اسس الحياة السياسية والاجتماعية في الصين ..

وكان أعظم ما يشجعه على النضال ويبعثه على التفاؤل بمستقبل وطنه ، نمو الشعور الوطني بين الصينيين ، وان كان هذا الشعور يكاد يكون وقفاً على الطلاب والمثقفين من مواطنيه . الا ان هذه الفئة المثقفة الواعية كان لها نفوذها الكبير بين جماهير الشعب ، لما يضمره الصيني ، بحكم تربيته وتقاليده ، من احترام عظيم للانسان المثقف .

وحين كان اصدقاء سون يحاولون حمله على القنوط من الاصلاح الذي نذر له حياته ، كان يجيب بأن حياته ربما لا تطول حتى يشهد هذا الاصلاح بنفسه ، ولكن ثقته لا تتزعزع بأن تغييراً سياسياً واجتماعياً عميقاً سيطرأ قريباً على حياة بلاده . وفي انتظار ذلك اليوم ، يجب على كل من يرغب حقاً في تقدم وطنه وتطوره ، ان يعمل دون كلل لتمهيد الطريق لاولئك الذين سيتاح لهم تجديد الصين .

وكان لسون يات سن أثناء إقامته في شنغاي أمينة للسر تدعى

الآنسة سونغ هانغ لنغ ، وهي فتاة صينية جذابة نشأت في أميركا وتخرجت من كلية ويزلين بماكون إحدى مدن جيورجيا . وكانت ذات ميول تقدمية ومن المعجبات بمبادىء الدكتور سون إعجاباً عظيماً . فأحب سون هذه الفتاة وأراد أن يتخذها شريكة لحياته ورفيقة له في كفاحه ..

وكانت زوجته الاولى تعيش مع أولاده الثلاثة عند أخيه آه مي في ماكاو بجزر هافاي ، وقد اعتنقت المسيحية وأدخلتها إحدى الجمعيات التبشيرية في عداد النساء اللواتي تعهد اليهن بالطواف على دور الصينيين لتوزيع الكتاب المقدس . فلم يجد سون حرجاً في الانفصال عن هذه المرأة ذات العقلية القديمة والقدمين الصغيرتين ، التي لم يجتمع بها خلال عشرين سنة إلا في فترات متقطعة قلما كانت تسمح بها حياته المضطربة . ورأى أن سونغ هانغ لنغ ، هذه الفتاة المثقفة الراقية ذات التفكير الوطني الواعي والتي تفهمه كل الفهم وتقدره أعظم التقدير ، أجدر بأن تكون المرأة التي تحمل اسمه وتشاطره حياته .

وقد استقبل أصدقاء سون هذه الفكرة بكثير من التحفظ ، وتمنوا لو يعدل عنها ، لانها تتنافى والعرف الصيني مثلما تتنافى والعرف المسيحي. غير انهم لم يجرأوا على مصارحته برأيهم ،فكتب الى زوجته ان توافيه الى اليابان ، ثم اجتمعا وقررا ان ينفصل أحدهما عن الآخر .

ولم يطلع أحد على ما دار في هذا الاجتماع ، وعلى الطريقة التي تم انفصالهما بها . وكل ما عرف في هذا الشأن ، ان سون يات سن

قد تزوج الآنسة سونغ هانغ لنغ باليابان في الخامس والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٥ ، وقد رافقته بعد ذلك في جميع أسفاره ، وكانت له زوجاً وفية ورفيقة مخلصة وعوناً في الشدائد والملمات يمده بالجرأة والعزيمة والأقدام .

وفي اوائل سنة ١٩١٦ وافت الانباء بان المقاطعات الجنوبية في الصين قد تمردت على حكومة بكين طالبة العودة الى الدستور الموقت الذي وضعه سون يات سن ، وأخذ تمردها يتحول شيئاً فشيئاً الى ثورة شعبية واسعة ، فأسرع الدكتور سون بالرحيل الى كانتون مع زوجته الجديدة ،ليحاول توجيه هذه الثورة نحو الاهداف الوطنية التي تنبغي لها ، فما كاد يبلغها حتى عهد اليه برئاسة المجلس الاداري وهو أعلى هيئة فيها،ولكنه ما لبث ان اقنع رجال الحركة الوطنية في الجنوب بتأليف حكومة شرعية تقف في وجه حكومة بكين وتعمل على قلبها لانشاء نظام ديموقراطي صحيح في جميع انحاء الصين، فتألفت تلك الحكومة برئاسته ومنح لقب جنرالسيم .

وواضح ان النظام الجمهوري الديموقراطي لم يكن ليقتصر في رأي سون يات سن على تغيير شكلي في أساليب الحكم ، بل يعني ثورة حقيقية تتناول اسس الحياة الاجتماعية . بيد انه ما كاد يحاول ، بعد أن تولى رئاسة الحكومة العسكرية في كانتون ، القيام بشيء من الاصلاح العميق ، حتى اصطدم برجال العهد القديم الذين تتصل حياتهم اتصالا وثيقاً بانظمته الاجتماعية والاقتصادية ، الى جانب نضاله ضد حكومة بكين وعلى رأسها هوشه تشانغ الذي انتخب في مطلع سنة ١٩١٧ رئيساً للجمهورية ، والى جانب ما يلاقيه

أيضاً من المعارضة لمبادئه في صفوف حزب الشعب نفسه الذي انضمت اليه تلك الايام جميع العناصر الهاربة من الشمال او الخارجة على حكومته على اختلاف نزعاتها .

وقد رأى الدكتور ان نفوذه يضعف باستمرار ، وقدرته على العمل محدودة النطاق ، وانصاره قلة لا يستطاع الاعتماد عليها في حركة ثورية شاملة ، فبادر الى الاستقالة من رئاسة الحكومة ، وعمد المجلس الى حل هذه الحكومة وانتخب سبعة اشخاص لتأليف هيئة من « القناصل » تمارس سلطة الحكومة وكان سون يات سن احد هؤلاء القناصل السبعة .

وعندما انتهت الحرب العالمية ، قرر مؤتمر السلام ، اعطاء مقاطعة شانتونغ الصينية لليابان ، على الرغم من احتجاج الشعب الصيني ، فأثار احتلال اليابانيين لهذه المقاطعة ، غضب الصينيين ، وتنادوا الى مقاطعة البضائع اليابانية ، فقررت اليابان مفاوضة حكومة بكين ، وقبلت هذه الحكومة ذات الميول اليابانية الدخول في المفاوضة مع علمها بمعارضة الشعب لعملها ، فنظم طلاب بكين في الرابع من نوار (مايو) سنة ١٩١٩ مظاهرة كبيرة واقتحموا دار الوزير الصيني في طوكيو المعروف بموالاته لليابان فأهانوه وكادوا يقضون عليه .

وحاول سون يات سن أن يحمل السلطة في كانتون على القيام بعمل حاسم في هذا الشأن ، وانتهاز هذه الفرصة لمحاربة بكين ، ولكن نفوذه فيها كان ضعيفاً جداً فلم يستطع الوصول الى شيء من أهدافه ، ولم ير بداً من الانسحاب منها ، فاستقال من منصبه وعاد الى شنغاي .

تطور جديد

عكف سون يات سن بعد عودته الى شنغاي على اصدار مجلة باسم « مجلة البناء » ووضع كتاباً سماه : « خطة البناء النفسي » حاول ان يثبت فيه ضلال المبدأ الصيني القديم : « ليس من الصعب ان نعرف ولكن من الصعب ان نعمل » ليقرر مبدأ جديداً يقول إن المعرفة أصعب من العمل . وكان هدفه من وضع هذا الكتاب اقناع انصاره بان مثله الاعلى ممكن التحقيق وإن بدا الوهلة الاولى شاقاً بعيد المنال ، وان تحقيقه يصبح امراً يسيراً حين يعرف الناس ضرورته وشدة الحاجة اليه .

ثم عمد الى كتابة تقرير مسهب يتألف من مائتين وخمس وستين صفحة ، سماه « تطور الصين الدولي » وبناه على رأيه في ان « غاية التقدم المادي ليست المنفعة الفردية بل المنفعة العامة » داعياً الدول الغربية الى المساهمة في اصلاح الصين ، واضعاً المشاريع التي تؤدي في رأيه الى هذا الاصلاح ، وهي مشاريع معقدة وخيالية ترمي الى اقامة دولة اشتراكية في الصين بمساعدة الدول الغربية الرأسمالية !

وقد وزع هذا التقرير على الحكومات والشخصيات التي يرجو مناصرتها ، فضن عليه اكثرها بالجواب ، وذكره المستر رانش وزير

الولايات المتحدة بأن الصين ليست قطراً جديداً ، بل هى قطر عريق في الحضارة له انظمته الزراعية والصناعية الخاصة ، وختم كتابه بقوله : « وفي اعتقادي ان الانتقال بها الى مناهج جديدة يجب ان لا يكون فجائياً ، وانما ينبغي ان تتطور القيم القديمة تطوراً تدريجياً » .اما المستر ويليم روفيلد سكرتير وزارة التجارة في واشنطون فقد كتب اليه : « انه لينبغي ملايين الدولارات لتنفيذ جزء صغير من المشاريع التي تقترحها » ، ثم ذكره بان الجمهورية الصينية ترزح تحت عبء الديون وليس من يجرؤ على ان يقدم لها قرضا جديداً . فاتصل بعدد من الشخصيات الصينية والاجنبية ، وعرض مشاريعه عليهم ، فاعلن له بعضهم استعدادهم للعمل على تحقيقها ، ولكنهم اتفقوا جميعاً على انه لا سبيل الى اصلاح البلاد وتعميرها إلا اذا قامت فيها حكومة واحدة ثابتة تميل الى التجديد وتمده بمؤازرتها .

وكان أنصاره يسعون خلال ذلك لاستعادة الحكم في كانتون ، وما لبثوا أن ظفروا ببغيتهم ، وألفوا مجلساً دعوه مجلس الجنوب وانتخبوه رئيساً للجمهورية ، فرحل الى كانتون وتولى الرئاسة في الخامس من نوار (مايو) سنة ١٩٢١ ، على الرغم من معارضة الجنرال شان كان مان وبعض اصحاب النفوذ في الجنوب .

وما كاد يقبض على ازمة الامور حتى أخذ يستعد لارسال حملة عسكرية لمحاربة بكين . ولكن الاضطرابات المحلية ، ومعارضة خصومه ، حالت دون تنفيذ ما يريد . فاقترحت عليه الدول الاجنبية انشاء دولتين مستقلتين فى الصين تتألف الاولى من

المقاطعات الشمالية وتتألف الثانية من مقاطعات الجنوب . وابدت هذه الدول استعدادها للاعتراف بكل من هاتين الدولتين اذا تم الاتفاق بينهما على هذا التقسيم .

ولكن الدكتور سون رفض فكرة التقسيم رفضاً قاطعاً تمسكا بوحدة الصين ، وعادت بكين الى مفاوضته رجاء الوصول الى حل يرضي الفريقين ، الا ان الخصومة بينه وبين الجنرال شان كانت قد بلغت اشدها ، فزحف هذا بجيشه على كانتون واستولى عليها ، ولم يجد رئيس الجمهورية بداً من الهرب مرة اخرى ، فلجأ الى باخرة انكليزية راسية في الميناء ، وتابع جنود شان اقتحامهم للمدينة ونهبهم اياها حتى بلغوا قصر الرئاسة فجعلوا يمطرونه بنيرانهم ، وكانت هانغ لنغ زوجة الرئيس لا تزال في القصر ، فغادرته زاحفة على بطنها ، تحت وابل من الرصاص ، ولجأت الى مزرعة قريبة ، فتنكرت بزي قروية فقيرة ولحقت بزوجها على الباخرة الانكليزية ، فاقلتهما الى هونغ كونغ ، وعادا منها الى شانغاي .

وكانت المعارضة المحلية التي تلاقيها حكومة بكين تتعاظم يوماً بعد آخر ، فارسلت هذه الحكومة وفداً الى شنغاي لمتابعة مفاوضاتها القديمة مع سون يات سن . فقبل الدخول في هذه المفاوضات ، وكتب الى انصاره من اعضاء البرلمان الذين كانوا قد غادروا بكين منذ ست سنوات ، ان يعودوا الى ممارسة سلطتهم التشريعية ، ففعل النواب الناقمون باشارته ، الا انهم ما كادوا يجتمعون مع النواب الموالين للحكومة حتى وجدوا ان هؤلاء لم يتقدموا خطوة واحدة نحو الاهداف الديموقراطية التي

ينشدونها ، فرجعوا من حيث اتوا .

جرت هذه المفاوضات في اواخر سنة ١٩٢٢ ، وفي اوائل سنة ١٩٢٣ حدث تطور هام في حياة سون يات سن كان له اثر كبير في مستقبل الصين .

ذلك ان الدكتور سون كان قد التقى في الصين سنة ١٩١١ بالثائر الروسي تشيتشيرين ، وكان كل منهما منفياً من بلاده ، ثائراً على حكومته ، فتبادلا الرأي حول مستقبل شعبيهما ، ونشأت بينهما صداقة عميقة ظلا يغذيانها بالرسائل سنة بعد اخرى . وفي سنة ١٩٢٣ اجتمع سون يات سن بادولف يوف ممثل الحكومة السوفياتية في شانغاي ، وانعقدت بينهما صلات وثيقة ، حتى سرت في الصين والاوساط الاجنبية التي تراقب الاحداث فيها ، اشاعة مفادها ان سون يات سن قد اعتنق المبدأ الشيوعي وسيعمد ، إن استتب الامر له ، الى تطبيق النظام السوفياتي في بلاده ، إلا ان سون يات سن وادولف يوف ما لبثا ان اصدرا بيانا مشتركا قالا فيه ان كليهما متفقان على أن اقرار الشيوعية او النظام السوفياتي في الصين ، مسالة غير واردة إذ ذاك ولا حظّ لها من النجاح ، وان السيد يوف مقتنع بان المسألة الصينية الملحة أكثر من غيرها هي تحقيق وحدة الصين واستقلالها التام ، وقد اكد للدكتور سون ، ان نضال الصين من اجل هذه المهمة العظيمة يحظى بتأييد الشعب الروسي وهي تستطيع الاعتماد على مساعدة روسيا في سبيلها .

وما عتم الدكتور سون أن عاد في شباط (فبراير) سنة ١٩٢٣ الى جنوب الصين ، وتعاون مع أنصاره على تأليف جيش قوي في

مقاطعتي يونّان وكوانغ سي، وشق بهذا الجيش طريقه الى كانتون والى رئاسة الجمهورية .

وفي شهر آب (اغسطس) من تلك السنة قدم الى كانتون ، بدعوة من سون يات سن، خبير سوفياتي يدعى ميخائيل بورودين، وجعله الرئيس مستشاره الخاص . ثم استقدم الدكتور سون للعمل تحت ادارته خبراء سوفياتيين آخرين قيل إن عددهم بلغ في حزيران سنة ١٩٢٤ اربعة وثلاثين مستشاراً منهم ثلاثون خبيراً عسكرياً .

وقد بادرت الدولة السوفياتية إلى الغاء ما كان للامبراطورية الروسية من امتيازات في الصين ، وتنازلت لها عن ملكية جميع المشاريع الروسية في الاراضي الصينية .

وكانت إدارة الجمارك الصينية في يد الموظفين الاجانب ، وهم يعملون برئاسة مندوب انكليزي ، تنفيذاً لاتفاق سابق بين الدول الاجنبية وحكومة الصين السابقة ، كي تستوفي تلك الدول فوائد ديونها من واردات الجمارك . فأراد سون يات سن تعديل بعض الانظمة الجمركية لمصلحة وطنه، فغضبت الدول الاجنبية، وحشدت في الموانيء الصينية اسطولاً حربياً اشتركت فيه جميع الدول ذات الامتيازات في الصين ، وفي طليعتها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا والبرتغال واليابان . فأثار ذلك سخط الرأي العام ، وعزز نفوذ الدولة السوفياتية لانها الدولة الوحيدة التي تنازلت عن امتيازاتها في البلاد الصينية . ويقول المونسنيور هنري بوند رستاريك مطران هونولولو في الصفحة ١٦٧ من كتابه عن سون يات سن ، ان الدكتور سون قد القى خطاباً كبيراً في

اجتماع عقد بكانتون في ٣١ كانون الاول سنة ١٩٢٣ قال فيه : « إننا لن نهتم بالغرب بعد الآن ، وسنولي وجوهنا شطر روسيا » وفي أوائل سنة ١٩٢٤ أسس سون مدرسة عسكرية في يوهومب كان الاساتذة الروس يعلمون فيها الطلاب الصينيين الفنون الحربية ، فنشأ فيها ملاك من الضباط الماهرين وأصبح لدى حكومة كانتون جيش قوي منظم على الاساليب الحديثة .

أما حكومة الشمال فقد عززت ما كان للدول الرأسمالية من امتيازات في أراضيها ، وكان لديها ذلك الحين عدد من المستشارين الاجانب الماليين والعسكريين ، منهم ، كما جاء في التقويم الصيني ، ستة مستشارون اميركيون ، واربعة يابانيون ، واثنان انكليزيان ، واثنان فرنسيان ، وبلجيكي واحد ، ومائة وعشرون موظفاً في البريد ، وستون في الملاحات ، وألف في الجمارك ، ينتسبون إلى دول اجنبية مختلفة .

وهكذا بدا جلياً أن الصراع بين حكومة كانتون وحكومة بكين ، لم يكن صراعاً بين رجلين أو حكومتين ، بل كان صراعاً بين فريقين يختلفان في العقيدة والنظرة الشاملة الى الحياة السياسية والاجتماعية ، وكل منهما يريد إقرار مبادئه في وطنه ، ويلجأ صراحة الى الاستعانة بمن يؤيده فيها ويساعده على تحقيقها . فالدكتور سون لا يرى حرجاً في استقدام المستشارين الروس والانتفاع برأيهم وخبرتهم ، لانه يرى ان الدولة السوفياتية قد أعطت ، بتخليها عما كان لروسيا القيصرية في الصين من امتيازات استعمارية ، برهاناً عملياً على احترامها للصين وحرصها على تقدمها ورغبتها في معاملتها

على قدم المساواة . وحكومة بكين لا ترى حرجاً في فتح ابواب بلادها للدول الاجنبية ، وتعزيز ما لهـــا من امتيازات سياسية واقتصادية في الصين تجعل من هذا القطر شبه مستعمرة لهـــا ، مـــا دامت مصلحة هذه الدول مرتبطة ببقاء الاوضاع الاجتماعية في هذا البلد على الحالة التي تريد الطبقة الاقطاعية الحاكمة في بكين ابقاءها عليها ، وما دامت رساميلها المستخدمة في الصين ، وتجارتها التي يستهلك بضائعها اربعمائة مليون صيني ، تدفعها الى المحافظة على هذه الاوضاع بكل ما تستطيع من قوة .

مبادىء سون يات سن

نعتقد بانه قد حان الوقت لنعرف ، على وجه الدقة ، المبادىء التي دعا اليها سون يات سن وجعلها أساساً لنهضة الصين .

لقد عرفنا ان الدكتور سون كان خارجاً على ظلم الاسرة المالكة ، واستبداد الامراء والحكام ، مؤمناً بالحكم الجمهوري والنظام الديموقراطي ، يعتقد بان الشعب يجب أن يكون صاحب السلطة في بلاده ، وان تتوافر له الحرية والثقافة والحياة الرخية ، ويرى أن الثورة وحدها هي التي تستطيع تحقيق هذه المطالب لانها حريّة بتغيير الانظمة السياسية والاجتماعية القديمة تغييراً أساسياً يتجاوب مع الحاجات الجديدة ، المادية والروحية ، التي تخالج ضمير الشعب .

ولكن ما هي الانظمة الجديدة التي كان سون يات سن يطمح الى اقرارها محل أنظمة الجور والاستبداد ؟ وما هي الطرق العملية التي كان يعتقد بانها تؤدي الى تحقيقها ؟

لا ريب في ان آراء الدكتور سون في هذا الصدد ، قد تطورت منذ عهد الشباب ، الى عهد الرجولة ، فعهد النضج والخبرة الوافية بالحياة . وليس في استطاعتنا القول بان هذه الآراء قد

انتظمتها وحدة في التفكير ، بصيرة وواضحة ، منذ ثورته الاولى حتى تبوأ كرسي الرئاسة للمرة الاخيرة ، ولكن في وسعنا القول بانها كانت دائماً ثورية وديموقراطية ، وبانها قد انتهت في عهد نضجه واكتمال رجولته ، الى مبادىء ثلاثة معينة وثابتة تحدث عنها كثيراً في الاعوام الاخيرة من حياته ، وغدت ميراثاً فكرياً له ، بحيث لا يذكر اسمه في الصين الا مقترناً بها .

وقد أوضح ما يريده منها في خطاب كبير القاه في السادس من آذار (مارس) سنة ١٩٢١ في اجتماع عقدته اللجنة التنفيذية لحزب الكومانتنغ في كانتون ، وهو الحزب الذي كان رئيساً له. ونحن نترجم فيما يلي ، القسم الاكبر من هذا الخطاب ، لتكون لدى القراء فكرة صحيحة عن « المبادىء الثلاثة » التي يتحدث عنها الصينيون كلما ذكروا أهداف سون يات سن :

«تساءلت اليوم ، في افتتاح دورة اللجنة التنفيذية : « ماذا تمثل منظمتنا ؟ وما هو تاريخها ؟ وما هي المبادىء التي توجهها ؟ »

إن حزبنا قد انشىء بعد سقوط اسرة تشانغ المانشوية واقامة شكل جمهوري من أشكال الحكم . ويجب أن يمثل هذا الحزب دوراً أساسياً في مستقبل وطننا . وحين أوقف نشاطه ، أصبحت الصين فريسة للفوضى ، ولم يكن ذلك بالامر المستغرب .

لقد حاربنا سنوات طويلة ، وسنحارب ايضاً ، اولئك الخونة الذين لا يزالون يسيطرون حتى الان في مقاطعات الشمال التي ليس لحزبنا نفوذ قوي فيها . ولكن مهما يكن ، فان الصين

الشمالية ستنضم الينا في يوم قريب او بعيد .

ان حزبنا هو حزب ثوري. وفي السنة التي تلت تأسيس النظام الجمهوري، ذهب كثير من رفاقنا الى البقاع النائية ليعملوا بحمية من اجل تطور الحركة الثورية في الصين . وفي هذا الوقت اتخذ الحزب اسمه الجديد، وقد كان يعرف باسم العصبة الوطنية حينما كان مركزه في طوكيو. ومن الواضح ان تعدد اسمائه لم يغير من طابعه ولا من هدفه.

لقد بلغت جمهوريتنا من العمر عشرة اعوام، الا اننا لانستطيع حتى الآن ، القول بانها جمهورية كاملة . فعملنا لا يزال ناقصاً ، علينا ان نواصل نضالنا .

ونحن نختلف عن غيرنا من الاحزاب . ان احد هذه الاحزاب كان يهدف في وقت ما ، الى خلع اسرة تشانغ واحلال اسرة مانغ محلها ، ولا تزال مبادىء هذا الحزب تتعارض مع مبادئنا . ولقد انتهينا نحن ، في السنوات الاخيرة من حكم اسرة تشانغ ، إذ كنا لا نزال في طوكيو ، والى تعيين المبادىء الأساسية التي توجهنا وهي : القومية ، الديموقراطية ، الاشتراكية .

حين كان المانشويون لا يزالون يقبضون على زمام السلطة ، كانت الثورة لا تزال في مرحلتها الاولى: لقد كانت قومية وحسب ، صحيح ان دستور السلطات الخمس ، يمثل دوراً مهماً في انشاء حكومة قوية وعادلة ، ولكن قبل اسقاط اسرة تشانغ ، كان الكثيرون يعتقدون بان اسقاط مضطهدينا هو هدفنا الرئيسي ،وان الصين ستستطيع بعد ذلك الاتجاه بمفردها في طريق التقدم العام.

هل كان هذا الرأي صحيحاً ؟ نحن نرى ، على العكس ، ان

كل اخفاق منينابه منذ ذلك الحين ، انما يرجع الى تجاهل المبدأين الآخرين ، اي الديموقراطية والاشتراكية ، باسم القومية . كلا ! ان عملنا لم ينته بخلع اسرة تشانغ . فلنعلم ولنذكر دائماً ان المبادىء الثلاثة إذا لم تتحقق كلها (ثلاثتها جميعاً وليس واحدمنها) لا يمكن أن يكون للجمهورية وجود ثابت .

ولكن هل تحققت قوميتنا نفسها تحقيقاً تاماً ؟

ان مبادىء الرئيس لنكولن هي مبادئي : «حكومة من الشعب ، ينتخبها الشعب ، وتعمل من اجل الشعب » . لقد خضعت اوروبا لهذا القانون مثلما خضعت اميركا . وفي اعتقادي ان هذا القانون تلخصه في لغتنا كلمات ثلاث : القومية ، الديموقراطية ، الاشتراكية .

ان غنى الولايات المتحدة وقوتها ، هما مثـــل لا يدحض على النتائج التي ادت اليها تعاليم الرجال العظام الذين أنجبهم ذلك القطر ، وأنا سعيد بان ارى ان مبادئي هي ايضاً مبادىء اكبر رجال الفكر السياسيين في الخارج ، وانها لا تتعارض مع المدارس الديموقراطية المعروفة في العالم .

اريد ان اقول بضع كلمات عن القومية .

ماذا نفهم من هذه الكلمة ؟ لقدظل شعبنا طوال قرنين رازحاً تحت نير الاسرة المانشوية الساحق . وها ان هذه الاسرة قد اسقطت فلماذا لا تتمتع الامة بحرية كاملة ؟ لماذا لا تتمتع بنعيم الحرية ؟ ذلك لان حزبنا لم يحقق مهمته بعد ، لانه لم يحقق غير القسم السلبي من مهمته ، ولم يصنع شيئاً في سبيل البناء .

لقد حدثت منذ انتهاء الحرب العظمى تغييرات هامة في العالم

واتجه الانتباه العام نحو الشرق الاقصى ، ولكن الصين هي ملتقى الانظار . واذا شئنا الدقة في التعبير ، قلنا انه ليس في الشرق الاقصى غير امتين اثنتين مستقلتين تمام الاستقلال ، هما سيام واليابان ، أما الصين التي تكبر هذين القطرين باثنتي عشرة مرة مساحة وعدداً ، فانها ليست في الواقع امة مستقلة تمام الاستقلال ... فلم ذلك ؟

بعد اسقاط الملكية وانشاء النظام الجمهوري على ارض تقطنها خمس قوميات (الصينية والمانشوية والمنغولية والتترية والتيبتية) ظهرت عدة عناصر رجعية ودينية كانت سبباً للمتاعب والعقبات التي اعترضت طريقنا . ان هذه القوميات تنقسم ، عددياً ، الى عدة ملايين من التيبتيين ، واقل من مليون من المنغوليين ، وما يقرب من عشرة ملايين من التتريين ، وعدد لا وزن له من المانشويين ، أما من الناحية السياسية ، فان منشوريا تؤلف منطقة نفوذ ياباني ، ومنغوليا ، تبعاً لاحدث الآراء ، تميل للناحية الروسية ، والتيبت هي ميدان نفوذ انكليزي . غير ان هذه الشعوب لا تملك القوى الكافية لتعيش منفردة ، ويجب ان تتحد مع الصين لتؤلف معها دولة واحدة .

هنالك اربعمائة مليون صيني يجب ان يستطيعوا العيش متحدين متآلفين في دولة واحدة . وإذا كانوا لم يصلوا بعد الى هذا الهدف فما ذلك إلا برهان على اننا لم نبذل حتى الآن اهتماماً كافياً بأول مبادئنا ، وعلى انه ينبغي لنا ان نكافح وقتاً طويلاً حتى نبلغ اهدافنا . يجب علينا اقامة جمهورية صينية واحدة غير مجزأة كي لا تؤلف جميع هذه الشعوب المانشوية والمنغولية والتيبتية والتترية

والصينية غير أمة واحدة قوية . فكروا في الولايات الاميركية المتحدة ... ان هذه الدولة تتألف في الواقع من المان وهولانديين وانكليز وفرنسيين وغير ذلك ايضاً .. وفي وسعنا اتباع مثلها وتحقيق الوحدة الصينية .

ان اسم « جمهورية الامم الخمس » لم يوضع إلا على اساس التفريق العرقي بين الشعوب التي تؤلف هذه الجمهورية . فعلينا ان نبذل جهدنا لازالة هذه التسميات المختلفة : المانشوية والتيبتية الخ .. ونتبع مثل الولايات المتحدة ، اي ان نرضي جميع المطامح والحاجات لدى جميع هذه الشعوب ، ونجعل منها وحدة سياسية ونؤلف امة واحدة تحمل اسماً واحداً هو الصين في اوسع معاني هذه الكلمة .

انظروا ايضاً إلى سويسرا . إنها تقع في قلب اوربا ، وهي تتصل بفرنسا والمانيا وايطاليا ، وليست لها لغة خاصة ، غير انها تؤلف مع ذلك امة موحدة . ان الحكمة السياسية والمدنية هما وحدهما اللذان استطاعا ان يجعلا من هذه الشعوب المختلفة الى هذا الحد ، كلاً منسجماً . وجميع المواطنين في هذه الجمهورية يتمتعون بالمساواة في الحقوق السياسية . وقد كانوا أول شعب في العالم أقر مبدأ التصويت المباشر . ألا ما أعظمه مثلاً للقومية !

لنفترض الآن أن هذه المهمة قد تحققت ، فاتحد جميع الصينيين في امة واحدة هي الصين . ألا يكون من واجبنا ايضاً الغاء التفاوت بين شعوب هذه الامة . إن الامة الصينية يجب أن تحرر هذه الشعوب من نيرها بمساعدتها على الانضواء تحت راية جمهورية

واحدة غير مجزأة . يجب إقرار المساواة بين الاجناس ، وإدخال التربية السياسية العالمية بالمعنى الذي فهمه الرئيس ولسن إذ تحدث عن حق الشعوب في تقرير مصيرها ، وإلى أن يتم ذلك ، تظل مهمتنا غير مكتملة . إن من يريد الاتحاد معنا يجب أن يعد نفسه صينياً ، ذلك هو معنى القومية ، القومية الايجابية التي يجب أن نوليها إهتماماً كبيراً .

قلت إن سويسرا قد وصلت إلى أرفع تعبير عن الديموقراطية ، ولكن النظام التمثيلي في هذه الدولة ليس ، مع ذلك ، ديموقراطياً كاملاً . إن حق المواطن المباشر وحده هو الذي يحقق تماماً الاهداف الديموقراطية ، وعلى الرغم من الثورات التي تعددت في فرنسا وأميركا وانكلترا ، وإقرار النظام التمثيلي الحالي فيها ، لم يؤمن هذا النظام حقوق المواطن المتساوية والمباشرة التي نناضل من أجلها الآن . نحن نريد للجميع حق التصويت ، وحق العزل (بحيث يستطيع الشعب في كل لحظة الغاء الثقة التي منحها لنوابه) ، وحق الاستفتاء (بحيث يستطيع الشعب أن يعارض في تطبيق قانون وافق عليه نوابه إذا كان هذا القانون يخالف أمانيه) ، وحق المبادرة (بحيث يستطيع المواطنون أن يقدموا للهيئة التشريعية أي مشروع من مشاريع القوانين التي يقترحون) .

هذه هي ، في رأيي ، الشروط الاساسية التي تؤلف دعامة « الحقوق الانتخابية المباشرة » التي أتحدث عنها .

إن النظرية الاشتراكية لم تعرف في الصين إلا منذ وقت قريب ، وأكثر أنصارها لا يعرفون منها غير كلمات قليلة خالية من المعنى ،

وليس لديهم أي برنامج . وقد استطعت انا ، بعد دراسات طويلة ، ان اكوّن لنفسي فكرة واضحة بهذا الشأن.

إن جوهر الاشتراكية هو حل معضلة الارض ورأس المال ! وان جهود البشرية باسرها ، والصين منها ، تجنح نحو هذا الهدف ، وفي رأيي ان حزبنا يجب ان يبذل وسعه لبلوغه دون تأخير .

واليكم بضع ملاحظات اضيفها الى ما قلت :

١ ــ القومية ــ اننا لم نستطع أن نحقق منذ خلع اسرة تشانغ غير جانب واحد من مهمتنا : لقد قمنا بواجباتنا السلبية ، دون أن نقوم بشيء ايجابي . فيجب تعزيز القوميـــة الصينية ، وتوحيد الاجناس التي تعيش في الصين لنجعل منها شعباً واحداً يؤلف دولة قومية صينية .

٢ ــ الديموقراطية ــ من أجل تحقيقها يجب علينا ، قبل كل شيء ، تبني الاشكال الاربعة من الحقوق الانتخابيـــة المباشرة : التصويت العام ، الاستفتاء ، حق المبادرة ، حق العزل .

٣ ــ الاشتراكية ــ ان لدي خطة في هذا الشأن :

ان اولى مهماتنا هي توزيع الأرض توزيعاً متساوياً . وقـــد حاولت ذلك ، حين كنت امارس في نانكين سلطـــة الرئيس الموقت ، فلم اوفق في محاولتي ، لأن الناس لم يفهموني .

ان النضال الطبقي انما يرجع الى التفاوت بين الغني والفقير . فماذا نفهم من كلمة التفاوت ؟ لقد كان التفاوت في العصور القديمة اقل مدى مما هو عليه اليوم . فالغني في أيامنا هـذه يملك الأرض كلها ، ولا يملك الفقير شيئاً ، ومرد ذلك الى تفاوت قوى الانتاج ،

فحطاب العصور القديمة كان يستخدم الفأس و السكين، بينا تستخدم الصناعة الحديثة الآلة التي توفر الجهد البشري وتنتج أكثر من قبل.

لنأخذ مثلاً آخر من ميدان الزراعة. في البدء كان عمل الانسان هو العمل المعروف دون سواه، ثم اخـــترع المحراث الذي تجره الدابة، وفي اوربا واميركا تستخدم الآن الطاقة الكهربائية التي تتيح في بعض الظروف حراثة مائة هكتار في اليوم الواحـــد، ومن هنا كان ذلك التفاوت الجسيم في القدرة على الانتاج. و كذلك الأمر فيما يتعلق بوسائل المواصلات، فان اخـــتراع البواخر والقاطرات جعل النقل أيسر مما كان عليه قبل اختراعها بألف مرة.

ان الذين يتحدثون في اوربا واميركا عن اخـــاء الشعوب، لاينظرون الا الى عاملين اثنين هما العمل ورأس المـال، ولكن الاوضاع الاقتصادية هنـاك تختلف كثيراً عن اوضاعنا. وسبب ذلك ان معضلات النظام الاجتماعي ترجع في اوربا الى سوء توزيع الانتاج، بينا هي ترجع عنـــدنا الى الفقر العام. ليس في الصين رأسماليون كبار مثلما في اوربا واميركا، ولكن واجبنا في تمهيد الطريق للاشتراكية لايقل عن واجب الاوربيين والاميركيين. اذ لايصح ان نعيد الاخطاء التي ارتكبت في اوربا أو في اميركا. ان سوء توزيع الانتاج في تلك البلاد قد بلغ حداً شنيعاً، وهذا السبب وحده يكفي لحملي على الاشادة باشتراكية الارض ورأس المال.

وفي اعتقادي ان من الضروري ان نعمد الى توزيـع الارض توزيعاً عادلاً، تلافياً للأضرار المقبلة التي نشعر بها منـــذ الآن.

انظروا ما حدث منذ اعادة تنظيم الدية كانتون : ان وسائل النقل قد تحسنت وثمن الارض على طول الارصفة والطرق المعبدة يرتفع يوماً بعد يوم ، حتى ان بعض الاراضي تباع بقيمة عشرة آلاف دولار للمتر الواحد . وهذه الاراضي يملكها افراد يعيشون ظلماً من عمل الآخرين .

هنالك موضوعات اخرى اريد ان اعرض لها . ان رجال السياسة الانكليز والاميركيين ، على الرغم من مهارتهم ، يخشون دائماً الثورة الاجتماعية . لماذا ؟ لأن المبادىء الاشتراكية ليست مطبقة في بلادهم .

ان الثورة الاجتماعية تختلف عن الشغب السياسي . وهي تتطلب فضائل أعلى . اما ثورة ١٩١١ واسقاط اسرة مانشو ، فانها لم يحققا نظرياتنا القومية الا تحقيقاً جزئياً ، ولم يضعا ابداً مسألتي الديموقراطية والاشتراكية موضع البحث . ومع هذا ، فان من الضروري ان نناضل بقوة ، ليس من اجل انتصار المبدأ الاول من مبادئنا فقط ، بل لكي ننمي ايضاً ، بالانسجام مع الافكار العصرية ، المبادىء الديموقراطية التي هي مبادئنا في الوقت نفسه .»

الأرث العظيم

●

بلغ سون يات سن سنة ١٩٢٤ الثامنة والخمسين من عمره ، وكانت المتاعب التي عاناها ، والجهود التي بذلها ، طوال الاربعين السنة الاخيرة من حياته ، قد استنفدت قواه وأثقلت كاهله ، فساءت صحته واشتدت سوءاً مع تعقد المشاكل المحيطة به . فأن موارد الجمهورية التي يرأسها لم تسمح بدفع رواتب الجنود في اوقاتها فتمرد المرتزقة منهم ونهبوا مخازن التجار . وكان التجار ساخطين من تعدد الحروب والثورات ، فضاعف ذلك من سخطهم واعلنوا الاضراب ، ونشبت بينهم وبين الجنود الكانتونيين المخلصين لمبادىء الثورة معارك عنيفة شبت النار خلالها والتهمت قسماً من تلك المدينة الجميلة التي تضم مليوناً من السكان . يضاف الى ذلك اضطراب المعيشة بصورة عامة ، لفقدان الامن والاستقرار ، والنزاع المستمر بين كانتون وبكين من جهة ، وبين كانتون والجنرال شان من جهة ثانية .

وفي اواخر سنة ١٩٢٤ بينما كان الدكتور سون يستعد للسفر الى بكين لحضور مؤتمر بين الشمال والجنوب ، انتابته ازمة حادة ، فلما بلغ عاصمة الشمال فحصه اساتذة المعهد الطبي

وقرروا اجراء عملية جراحية له ، ولكنهم ما كادوا يشقون جوفه حتى تبين لهم انه مصاب بالسرطان في كبده ، وانه لا فائدة من اجراء العملية الجراحية ، او ان هذه العملية مستحيلة . فبقي في المستشفى عدة اسابيع ، ثم توفي في الثاني عشر من آذار (مارس) سنة ١٩٢٥ بين ذراعي زوجته شينغ لينغ ، وكان آخر ما قاله لها وقد رآهـــا تبكي على سريره بلوعة محرقة : « لا تبكي يا شينغ لينغ فان عملي لم ينته بعد ، وليس الوقت وقت بكاء» فتأخذ بيده وتضمها الى صدرها بحنان عظيم ، ويتابع هو في همس خافت : « شينغ لينغ شينغ لينغ ، لا تنسي الشعب ابداً ! » فتجيب باتان : « لن أنسى أبـــداً ! » .

وما كاد هذا الرجل الكبير يغمض عينيه الى الابـــد ، حتى ارتفع الى قمة المجد ، فغدت الصين تذكره مع انبيائها الخالدين ، وأصبح نفوذه الفكري اقوى مما كان وهو على قيد الحياة ، وأضحى اسمه رمزاً للحرية التي خاض في سبيلها الاهوال وجابه الموت . . .

وفي هذه العاصمة القديمة التي حاربها سون يات سن طول عمره وكان اسمه فيها جريمة يعاقب عليها بالسجن ، واعتناق مبادئه خطراً يودي بمن يقدم عليه ، احتشدت الجماهير الغفيرة حول المستشفى الذي فارق الحياة فيه ، غير مبالية بالخطر الذي تتعرض له ، وانثالت في صمت خاشع رهيب ، وراء النعش الذي ضم جثمانه الطاهر ، بعد ان احتفل بوداعه بحسب الطقوس الكونفشيوسية اولاً والطقوس المسيحية ثانياً ، الى دير بي وان في ضواحي بكين . وقد ظل هذا الدير مقراً له حتى تم انتصار رفاقه فنقلوا رفاته الى بكين ، المدينة

التي اراد ان يجعل منها عاصمة للصين الجديدة ، وبنوا له فيها ضريحاً مهيباً على جبل الارجوان محاطاً بالاشجار والرياحين .

ويدخل سون يات سن في عالم الذكرى ، بل في عالم القداسة ، فما اكبرت الصين في تاريخها الطويل رجلاً بقدر ما اكبرته هو غير كونفوشيوس نبيها القديم . والحق ان كونفوشيوس وسون يات سن ينتظمان تاريخ الصين منذ بدايته العظيمة حتى عظمته التي تبدأ الآن من جديد .

ومنذ اليوم الثاني عشر من شباط (فبراير) سنة ١٩٢٥ ، وهو اليوم الذي غربت فيه شمس سون يات سن ، وملايين الصينيين ، شيوخاً واطفالاً ، رجالاً ونساء ، يقفون صباح يوم الاثنين من كل اسبوع ، اجلالاً لذكراه المقدسة ، وينحنون ثلاث مرات امام صورة له تحيط بها الاعلام وقد كتب عليها بخط صيني جميل : أبو الجمهورية الصينية . ثم يقرأون الكلمة الحارة التي اودع فيها شوقه الى عالم احسن ، عالم الجمهورية الفضلى التي يجد فيها كل رجل عملا وكل امرأة بيتاً وكل عاجز ملجأ ، والتي تقرر سيادة المقدرة والموهبة والاخلاص والفضيلة ، فتتلاشى الانانية واللصوصية والاحتكار ، ويزول العنف والظلم والاستثمار من على وجه الارض .

●

مات سون يات سن فقيراً لم يترك لامرأته غير منزل صغير ومكتبة متواضعة ، ولكنه خلف لها ولاولاده ، ولجميع الصينيين ، ارثا وطنياً عظيما ، وفكرة تحريرية انسانية ، وثورة لم يكن ممكناً ان يبلغ بها نهايتها في سنوات قليلة فتركها وهي لا تزال في

منتصف الطريق ..

وكان الزعيم الراحل قد كتب قبل وفاته بيوم واحد ، وصية وجهها الى رفاق جهاده ، قال فيها :

« لقد عملت خلال اربعين سنة ، دون انقطاع ، من اجل الثورة التي تهدف الى ضمان الحرية والمساواة في الصين ، وقد جعلتني الاختبارات التي جنيتها طوال هذه السنين ، اقتنع اقتناعاً عميقاً بانه يجب ، من اجل تحقيق هذا الغرض ، ايقاظ الجماهير الغفيرة والاتحاد مع الامم التي تعاملنا على قدم المساواة لتركيز جهودنا جميعاً في نضال واحد .

ان الثورة لم تحرز نجاحاً تاماً حتى الآن . فعلى رفاقي في العمل ان يتبعوا المبادىء والتعاليم التي عرضتها في آثاري : « خطة البناء القومي » و « مبادىء عامة في البناء » و « اسس الديموقراطية » و « بيان اول اجتماع لممثلي الامة » مواصلين الجهد حتى تتحقق تلك المبادىء تحقيقاً كاملاً .

وان ما اذعته حديثاً ، بشأن الدعوة الى انتخاب مجلس شعبي والغاء المعاهدات الظالمة والرديئة التي تربط الصين بغيرها من الدول الاجنبية ، يجب ان يحقق باسرع ما يمكن . هذه هي وصيتي الملحة اكثر من غيرها » .

كان على رفاق الزعيم اذن ، وعلى انصاره ومريديه ، ان يعملوا متحدين على تكميل رسالته ، والسير بالثورة الى غايتها ، حتى تتحقق الاهداف التي عينها لها والتي استوحاها من حاجات الصين .

ولكن ما كادت الزهور التي نثرها أنصار سون يات سن على

قبره تذبل وتجف وتعبث بها يد الريح ، حتى انشق بعضهم على بعض وأخذوا يتنازعون الأرث الذي خلفه لهم ، كل يدعي انه صاحب الحق فيه وانه يكمله على ما ينبغي له ..

وسرعان ما تحول هذا النزاع الفكري الى حرب أهلية دامية هي اعظم حرب أهلية شهدها التاريخ ..

وقد عرف الناس ان هذا النزاع قد نشب بين من اطلقوا عليهم اسم الشيوعيين ، ومن اطلقوا عليهم اسم الوطنيين . والحق انه قد ضم في أحد المعسكرين جميع العناصر الوطنية التي ارادت الاستمرار في الثورة الى نهايتها حتى تتحقق مبادئها الثلاثة وإن كان الشيوعيون أبرز هذه العناصر وأصلبها في النضال من أجل الانقلاب الاجتماعي وتوزيع الأرض على الفلاحين ، وضم في المعسكر الثاني جميع المحافظين الذين يعارضون هذا الانقلاب سواء منهم الفئات التي كانت تمثل الجناح الأيمن من الكومانتنغ او الفئات التي لم تشترك يوماً في هذا الحزب أو كانت معادية له .

ويمثل اليوم هذين الفريقين رجلان شهيران هما شان كاي شك وماو تسي تونغ ..

ويتعذر علينا الالمام في هذا الكتاب المحدد الصفحات بمراحل الحرب الأهلية التي نشبت بعد وفاة سون يات سن .. ولكننا سنعرضها بايجاز من خلال حياة هذين الرجلين .

شان كاي شك

●

ولد شان كاي شك في سيكيو بقاطعة سكيانغ ، في آخر شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٧٧ ، وكان والده يعمل في الزراعة وفي التجارة معاً وقد تزوج ثلاث مرات ، وشان ابن الزوجة الثالثة وهي امرأة ورعة متمسكة بدينها البوذي ، أنشأت ابنها على طاعة الآلهة ، وعلمته الغسل والطبخ وحمل الماء من الينابيع القريبة . الا انه لم يكد يبلغ سن الرشد حتى اخذ يميل الى الحياة العسكرية . وكانت اليابان المثل الاعلى للمهارة الحربية في الشرق ، فسافر الى طوكيو والتحق بمدرسة باوتنج بتوصية خاصة من حكومته . وقد تعرف خلال اقامته في اليابان ببعض الصينيين الثائرين من مريدي سون يات سن وانتسب الى جمعية لهم اطلقوا عليها اسم « الحزب الثوري الصيني » .

وعندما نشبت الثورة الصينية سنة ١٩١١ ، كان شان كاي شك يخدم في الجيش الياباني ليتدرب على الفنون العسكرية بعد تخرجه من المدرسة الحربية ، فرحل الى الصين واتصل بأحد مراكز الثورة فعهد اليه بمهمات ثورية عدة قام بها خير قيام . غير انه لم يلبث ان عاد الى طوكيو بعد تخلي الدكتور سون عن رئاسة الجمهورية ،

ليعاود عمله في الجيش الياباني، فتأثر الى حد كبير بالروح العسكرية المسيطرة في اليابان ، وعاد الى وطنه بعد سنوات ليعمل مع الثوار بهذه الروح الجديدة ، وكان سون يات سن غائباً يومذاك عن الصين وشن شي ماي هو القائد المباشرة للحركة الثورية ، فاشترك معه في تنظيمها وتوجيهها . وحين عاد الدكتور سون وتولى الرئاسة من جديد ، وجد هذا الشاب الخبير بفنون القتال ، في عداد الشبان المنضوين تحت لوائه ، فاختاره مساعداً عسكرياً له ، وما لبث ان ارسله الى موسكو ، أيام رئاسته الأخيرة ، فبقي فيها ردحاً قصيراً ثم عاد الى الصين ليساهم في تأسيس المدرسة العسكرية ، وكان الجنرال غالتز المستشار الروسي كبير المدرسين في هذه المدرسة وشان كاي شك الرئيس الأول .

وكان سون يات سن يوحد بشخصيته القوية ووطنيته الصادقة بين رجال الميمنة ورجال الميسرة في الكومانتنغ، فما كاد يفارق الحياة مبكياً من الملايين الذين كان لهم أباً رحيما وقائداً حبيباً ، حتى بدأ النزاع بين اعضاء هذه الجبهة الشعبية وطمح الكثيرون الى احتلال مركزه الرفيع ، وكان شان كاي شك من ابرزهم فتولى القيادة العامة ، واخذ يناوىء الديموقراطيين والشيوعيين ، وجرد العمال من اسلحتهم ، واعتقل فريقاً من زعمائهم في المدرسة العسكرية ، وطفق يعمل على فصل الآخرين من قيادة فرقهم .

غير ان هذا الاضطهاد الذي تعرض له الديموقراطيون لم يدفعهم الى التخلي عن الجبهة الشعبية ، بل قووا صفوفهم فيها واشتركوا

في الحملة الكبرى التي شنتها على الشمال في آب (اغسطس) سنة ١٩٢٦ وكانت اشبه بثورة واسعة ترمي الى الاستيلاء على المدن الصناعية في وسط الصين ، وتجريد الأغنياء الذين لم يساهموا في الحركة الوطنية من اموالهم ، وتحطيم مقاومة القادة واصحاب الاراضي المتمردين في الشمال !

وكان زحف الجيوش وفرق الانصار التي قامت بهذه الحملة أشبه بامتداد النار في الهشيم ، تساقطت امامه المدن والقرى بسرعة عظيمة ، واستسلمت نانكين في آذار (مارس) سنة ١٩٢٧ ، واعلنت شنغاي استعدادها لعقد الصلح ، ووافق شان على طلبها وشخص اليها زاعماً انه يرغب في عقد قرض مالي مع ارباب المصارف الصينية ، ولكن الشيوعيين شكوا في زعمه وذهبوا إلى انه يريد الاتفاق مع الدول الاجنبية لمحاربتهم ، فما كاد يسافر حتى اعلنوا انفصالهم عن الكومانتنغ واستولوا على منطقة هانكاو ، فتولى رجال المال في شنغاي ذعر شديد ، ولكن شان كاي شك طمأنهم بقوله : « اعطوني المال الذي اطلبه ، وخذوا عليّ عهداً بتنظيف الارض منهم ، واقرار الأمن الذي تريدون » وكان هؤلاء قد ضاقوا بالثورات والفتن المتعاقبة ، وخامرهم الخوف من انتشار الشيوعية في بلادهم ، فعقدوا مع شان كاي شك قرضاً كبيراً ، وعاد القائد الى كانتون فاذا الكثيرون من اصدقائه السابقين يتنكرون له وينضمون الى معسكر الشيوعيين ، واذا هؤلاء يعلنون انه خارج على القانون ...

بيد أن شان كاي شك لم يكن ليعتقد بان الشيوعيين يؤلفون

خطراً كبيراً من الناحية العسكرية ، وكان اهتمامه بمحاربة القواد العسكريين المتمردين في الشمال اعظم ، فجهز جيشاً لمهاجمتهم ، وجهز الشيوعيون جيشاً ثانياً لمحاربة الشمال ايضاً ، وجهز الجنرال فنغ يو هسيانغ جيشاً آخر وكان هذا من رجال الثورة القدماء وقد استطاع ان ينظم جيشاً قوياً في الشمال الغربي من منغوليا ، وان يعقد صلات ودية مع روسيا ، وكان مؤيداً لحملة شان كاي شك على القواد العسكريين في الشمال ولكن الخلاف بين شان وحكومة هانكاو قد اقلقه فأخذ يسعى للتوفيق بينهما . وكان من المرجح ان توفق هذه الجيوش الثلاثة في الوصول الى بكين والاستيلاء من ثم على المناطق التي يسيطر عليها المارشالات المتمردون في منشوريا ، لو لم تبادر اليابان الى التدخل في الثورة ، فيستولي جنودها على قسم كبير من السكة الحديدية وتقطع عليها الطريق الى بكين .

وعلى أثر هذا التدخل وضعت فكرة الاتحاد مرة اخرى ، واشترط الشيوعيون على الكومنتانغ اقصاء شان كاي شك عنه ، فتخلى عن مركزه وانقطع في معبد بوذي قديم . وكانت هذه الفترة من حياة شان كاي شك بدء تطور جديد في تفكيره واتجاهه السياسي ، إذ انتهى خلالها الى الاعتقاد بان الولايات الاميركية المتحدة هي وحدها التي تستطيع مساعدته على توحيد الصين والقضاء على الشيوعيين ، صيانة لمصالحها الاقتصادية فيها . وقرر شان زيارة اميركا للشروع في تنفيذ خطته الجديدة ، ولكنه كان عاشقاً . . . وقد اراد أن يتزوج بمن يحب لتكون قرينته عوناً له على كسب صداقة الاميركيين .

كان شان كاي شك قد تزوج وهو في الخامسة عشرة من عمره، ولكن زواجه المبكر لم يكن موفقاً فطلق امرأته سنة ١٩٢١ واحب الآنسة سونغ ماي ينغ صغرى بنات سونغ واخت شينغ لنغ قرينة سون يات سن . وكانت هذه الفتاة بارعة الجمال لامعة الذكاء اميركية الثقافة ، الا انها لم تبادل شان عاطفته ، ولم تستجب لرغبته في الاقتران بها الا سنة ١٩٢٧ بعد ان اشترطت عليه اعتناق المسيحية فاجابها الى طلبها وتزوج بها في شهر كانون الاول (ديسمبر) من تلك السنة ..

وكانت الاوساط الوطنية قد الفت حكومة متحدة في نانكين غير ان نفوذها كان ضعيفاً ، فقد ظل القواد العسكريون مستقلين في الشمال ، واستقل الشيوعيون في منطقة واسعة في الوسط والجنوب واسسوا جمهورية سوفياتية ، فاستدعي شان كاي شك الى نانكين بعد زواجه باسبوع واحد ، وعهد اليه بقيادة الجيوش فكان اول ما اقدم عليه البطش بالشيوعيين في كانتون بعنف شديد ، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع روسيا السوفياتية .

واعلنت الحرب على الشمال من جديد ، فهاجمه شان كاي شك من ناحية ، وفنغ يوهسيانغ من ناحية ثانية ، ووفق هذا في اقتحام بكين ، وتراجع المرشال العجوز شيانغ تسولين امامه الى منشوريا عبر سد الصين ، وبينما كان قطاره المصفح يجتاز السهول الى موكدن انفجرت تحته قنبلة فقضت على المارشال وانتهت بذلك مقاومة الشمال . وذهب فنغ يوهسيانغ وشان كاي شك الى ضريح سون يات سن فنثروا عليه الزهر واعلنوا له تحقيق اول مبادئه الثلاثة .

ولكن ما كادت الحرب تضع اوزارها بين الشمال والجنوب ، حتى غزت اليابان منشوريا وبدأت في الثامن والعشرين من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٢ هجومها الشهير على شانغـــاي ، فشهد العالم اول مثل على الحرب الاجماعية التي تلتهم نارها السكان المسالمين ، شيوخاً ونساءً واطفالاً ، كما شهد امثلة رائعة على البطولة الصينية وعلى التضحية التي تثير الدهش والاعجاب .. وكانت ابرز الوان البطولة والتضحية تلك الـــتي صدرت عن الديموقراطيين والشيوعيين الذين وقفوا في وجه العدوان الياباني موقفاً رائعاً ، بينما اعتزل شان كاي شك منصبه فلم يقم باي عمل في هذه المعركة الدامية التي انتهت باحتلال شنغاي . واعجب من ذلك ان حكومة الصين المركزية قد تجاهلت خطر اليابان التي كانت توسع مناطق احتلالها في الشمال ، ووجهت قواها كلها لمحاربة الديموقراطيين والشيوعيين فكان هؤلاء يحاربون اليابانيين من ناحيـة والقوى الصينية الحكومية من ناحية ثانية .

لقد قرر شان كاي شك القضاء على الجمهورية السوفياتية الصينية فاستعان بالقروض المالية الاميركية ، وبالمستشارين العسكريين الالمان ، وشن عليها خمس حملات افناء اشتركت فيهـا المدفعية والدبابات والطائرات ، وكانت الحملة الأخيرة منها تتألف من مليون جندي ، وقد عمل اخيراً بنصيحة الجنرال الالماني فون سكيت فبنى حول اراضيهم سوراً واخذ يضيق عليهم الخناق ، حتى قيل انه قد انفق ١٦٠٠٠ جنيه مقابل كل جندي احمر قتله .

واخيراً قررت جمهورية الصين السوفياتية الهجرة من اراضيها ؛

فاخترقت الحصار المضروب حولها وسارت برجالها ونسائها وجنودها حتى وصلت بعد عام كامل الى منطقة شانسي الجرداء على مقربة من روسيا السوفياتية وعلى طريق الغزو الياباني من الشمال ، فاستقرت فيها .

وكان الشيوعيون يتهمون شان كاي شك خلال ذلك بخدمة مصالح اليابانيين ، وقد ساعدت الجهود المتكررة التي بذلوها في سبيل تأليف جبهة متحدة تقف في وجه الخطر الياباني ، واصرار شان على تجاهل هذا الخطر وبذل قواه كلها لمحاربة الشيوعيين ، على اقناع الجماهير بان شان كاي شك ان لم يخدم اليابان عامداً فهو يخدمها غير عامد ، وبدأ اعوانه يشكون في سياسته ، وخرج عليه قسم كبير منهم ، وهربت سونغ شينغ لنغ زوجة سون يات سن الى معسكر الشيوعيين معلنة ان شان كاي شك قد خان مبادىء الدكتور سون .

ولم تقتصر هذه النقمة على الاوساط المدنية ، بل تعدتها الى الاوساط العسكرية نفسها ، فجعل كبار القواد يتهمون شان كاي شك بالتواطؤ مع اليابانيين ، وكان بين هؤلاء القوادشيانغ هسو ليانغ الملقب بالماريشال الشاب وهو ابن الماريشال العجوز ، فقد بدأ الجنود الذين كانوا يعملون تحت قيادته يتمردون على الاوامر التي تقضي عليهم بمقاتلة « العصابات الصينية الحمراء » قائلين : « ألم يحن الوقت لمحاربة « العصابات » اليابانية التي اعتدت على استقلال الصين ! »

ولكن شان كاي شك قد اصمّ اذنيه عما تلفظ به الاوساط

الشعبية والعسكرية ، وطفق ينظم حملة سادسة لمحاربة الشيوعيين ، مؤكداً ، مثلما اكد غير مرة ، ان هذه الحملة ستفنيهم اجمعين ، فاذا بالاضراب يعم البلاد ، واذا بالماريشال الشاب يتآمر مع ضباطه على شان كاي شك فيختطفونه ويهمون بقتله ... وتشاء الظروف ان يتدخل الشيوعيون في الامر ، فينقذون حياة خصمهم مخافة ان يؤدي مقتله الى اذكاء نار الحرب الاهلية في البلاد في وقت هي احوج ما تكون فيه الى الاتحاد للصمود بوجه الاستعمار الياباني ، ثم يطلقون سراحه بعد ان تعهدهم زوجته التي لحقت به مع وفد من الحكومة المركزية ، بان تسير الامور وفق ما يرغبون .

وفي الواقع ان شان كاي شك ما كاد يستعيد حريته حتى تحالف مع الشيوعيين على مواجهة العدوان الياباني في جبهة واحدة . ولكن اليابان كانت قد بسطت نفوذها خلال ذلك على منشوريا كلها ، وجعلت منها قاعدة عسكرية جبارة للحرب التي اعلنتها على الصين في السابع من تموز (يوليو) سنة ١٩٣٧ واستمرت الى آخر الحرب العالمية الثانية . وقد كان هجومها هذه المرة مخيفاً ساحقاً ، فاستولت على مئات المدن والقرى وبلغت العاصمة نانكين ، وجنودها في الطريق الى هذه العواصم يذبحون وينهبون ويسبون معيدين الى الاذهان صور المذابح التي قام بها تيمورلنك وجنكيز .

وكان اليابانيون يعتقدون بان احتلالهم العاصمة الصينية سيحمل الصينيين على الاستسلام . ولكن الصين أبت الخضوع للاستعمار واستمرت على مقاومته بحيوية عجيبة ، وانتقلت عاصمتها الى

هانكاو ثم الى شونكنغ ، والحرب تشتد سنة بعد أخرى ، والمقاومة تتعاظم ، حتى كانت الحرب العالمية الاخيرة .

وخلال هذه الحرب نالت الصين وعوداً عدة من الدول المتحالفة ، بالغاء الامتيازات الاجنبية فيها ، الى جانب ما نالته من مساعدات مادية عظيمة ، ثم رأت هذه الدول توغل اليابان في الاراضي الصينية ، وما كابدته الصين من اهوال الحرب وكوارثها ، فأعلنت في العاشر من شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٤٢ تخليها عن امتيازاتها فيها ، تشجيعاً لها على مواصلة الحرب الى جانبها حتى نهايتها .

وقد استطاع الشيوعيون الصينيون أثناء هذه الحرب ، تحرير مناطق كبيرة من الاستعمار الياباني ، واقامة حكم ديموقراطي شعبي فيها . فلما هزم الحلفاء اليابان ، كان القسم الاكبر من الصين الشمالية ومنشوريا في ايدي القوى الديموقراطية والشيوعية ، وقد اسسوا فيها حكومات شعبية محلية ، ووزعوا اراضيها على الفلاحين .

وتقول الكاتبة الاميركية انا لويز ستروتغ : « كان في وسع شان كاي شك ان يصبح قائداً للصين الجديدة ، لما كان يتمتع به عند انتهاء الحرب من شهرة كبرى . وكانت أستار النسيان قد القيت على اعماله السيئة السابقة ، فأصبح رمزاً لامة موحدة محررة . وكانت الاراضي الشمالية نفسها مستعدة للقبول به رئيساً ، الا انها كانت تريده رئيساً دستورياً لا ديكتاتورياً .

« ولكن شان كاي شك عمد الى جعل حكامه في جميع مناطق الشمال ، من الحكام القدماء الذين كانوا يتفانون في خدمة اليابان .

فسمح لهم بالاحتفاظ بالسلطة ، وأعطاهم الصلاحية التامـــة لحل جيوش التحرر الشعبية وتعيـــين رؤساء البلديات وموظفي المقاطعات . ومد يده في الريف الى ملاكي الاراضي الذين كانوا انفسهم عملاء لليابانيين .

« الا ان شعب الصين الشمالية لم يكن ليريد هذا ، لانه شعب تمتع بالديموقراطية ، وعزم على صيانتها ، وقد سئم الحياة تحت نير العسكريين الذين ينهبون الشعب ، والاقطاعيين الاجانب ، فاذا هو يعلن ثورته الديموقراطية معتمداً على الحزب الشيوعي الصيني الذي يتولى قيادته ماو تسي تونغ أحد زعماء آسيا الجديدة » .

ماو تسي تونغ

يقول الكاتب الاميركي « ادغار سنو » الذي زار « ماو تسي تونغ » وعاشره وسجل تاريخ حياته في كتاب كبير له عن الصين :

« بدا لي « ماو » رجلاً معقداً مثيراً للاهتمام جداً ، فهو في بساطته وسجيته فلاح صيني ، يمتلكه شعور صادق بالمرح والبهجة وشغف بالضحكة العامية يرسلها على بداوتها دونما تكلف . ولا يفوته الضحك حتى على ما يتعلق بشخصه او بهفوات الحكومة السوفياتية الصينية ، ولكنه ضحك الطفولة الذي لا يزعزع مطلقاً ايمانه بغايته الراسخ في قرارة نفسه . وهو بسيط في كلامه ، وفي حياته التي يحياها ، وقد يظنه البعض خشناً غير مهذب ، ولكنه في الواقع يجمع بين السجايا الغريبة : بين السذاجة والاحساس المرهف والمجاملة الاجتماعية .

« وارجح ان يكون انطباعي الأول عنه ، الذي تتغلب فيه صفة الدهاء الأهلي ، هو الانطباع الاصح . ومع هذا فان ماو تلميذ مهذب من تلامذة الثقافة الصينية الكلاسيكية ، وهو قارىء نهم لا يفضل بين كتاب وآخر بل يلتهمها جميعاً ، وهو دارس متعمق للتاريخ والفلسفة وكاتب نحرير وخطيب مفوه ، وهب

ذاكرة نادرة وقوة فذة في الانكباب على موضوعه، وتتسم عاداته وتصرفاته الشخصية ومظاهره بطابع اللامبالاة، ولكنه متشدد الى حد مدهش فيما يتعلق منها بجزئيات واجبه فضلاً عن كلياته، ولا يعرف نشاطه الكلل او الملل، وعبقريته عظيمة في الفن الستراتيجي العسكري والسياسي، ويعتقد اليابانيون بانه اقدر الصينيين الاحياء في هذا الفن.

«ويقطن ماو وزوجته كهفاً نحت في سفح التل وفيه غرفتان جدرانها كالحة عارية إلا من الخرائط. وقد رأى «ماو» أياماً اسوأ من هذه، كما انه رأى اياماً خيراً منها، فهو ابن الفلاح الغني في ولايته «هونان». وكان اكبر شرف يتباهيان به الكلمة التي تقيمها الناموس، وفيما عداها فان حياة ماو لم تختلف في شيء عن معيشة افراد الجيش الاحمر. فهو لا يجد في حوزته الان سوى بعض الاغطية والحوائج الشخصية الحقيرة وبزتين رسميتين من القطن، بعد عشر سنوات مرت عليه وهو زعيم الانصار، وبعد مئات المرات التي صودرت فيها اموال اسياد الاراضي وملتزمي الضرائب. وقد ذهبت مع ماو مرات عديدة الى اجتماعات القرويين وطلاب الكلية العسكرية الحمراء والى المسرح الأحمر، فكان يتخذ مجلسه بين افراد النظارة دون أن يتبينه احد.

ولا تظهر على ماو اية اعراض من مرض جنون العظمة... ولكنه يتحلى بشعور الكرامة الشخصية العميق، وتبدو عليه سيماء القدرة على البت الجازم القاطع عندما تقضي الضرورة بذلك.»

ولد سنة ١٨٩٣ في قرية «شاوشان» من اعمال «جانشا» بمقاطعة

«هونان» ، وكان أبوه «ماو جن شين» فلاحاً فقيراً ولكنه استطاع ان يوفر بعض المال بشراء الحبوب من فقراء الفلاحين ونقلها الى المدينة لبيعها من التجار بسعر أعلى ، فجمع ثروة وافرة واشترى ارضاً واسعة واصبح من اغنياء القرية .

وقد دخل ماو تسي تونغ مدرسة القرية وهو ابن ثمانية اعوام وبقي فيها حتى سن الثالثة عشرة ، وكان يعمل في مزرعة ابيه الى جانب دراسته . وهو يروي ان معلمه كان قاسياً شرساً لايفتأ يضرب تلامذته ، وقد ضربه مرة وهو في العاشرة من عمره ، فهرب من المدرسة وخشي العودة الى المنزل لئلا يضرب مرة ثانية ، فتاه ثلاثة ايام في واد قريب ، ثم عثر اهله عليه . ويقول ان هذا « الاضراب » كان ناجحاً وقد ترك اثراً كبيراً في نفسه ، لان ابا ه اصبح اكثر اهتماماً به ، كما غدا المعلم اكثر ميلاً للرفق بالتلاميذ .

وكان الأب فظاً كسولاً يسيء معاملة اهله وعماله ، ويرهقهم بالعمل ، ويقتر عليهم في الطعام ، ولا يكف عن ضرب ابنه وتقريعه ، فسخط الفتى عليه . وشغف تسي تونغ بالمطالعة ، اثناء دراسته وبعدها ، وجعل يقرأ بنهم شديد ، على الرغم من ان نهاره وجانباً من ليله كانا وقفاً على اعمال ابيه . وكان يميل الى قصص الصين القديمة وحكايات ثوراتها ، ويميل بنوع خاص الى الكتب الممنوعة التي كان معلمه الشيخ يبغضها ويقول انها كتب شريرة . أما ابوه فكان يرى في قراءة الكتب الادبية عامة ضياعاً للوقت ، وينصحه بقراءة الكتب التي تعينه على كسب الدعاوى القضائية . ويقول ماو تسي تونغ انه ما عتم ان لاحظ باستغراب ان هناك صفة

مشتركة بين هذه الكتب وهي ان اشخاصهـــا جميعا من المحاربين والحكام والادباء وليس بينهم بطل واحد من الفلاحين !

واتفق ان « جانشا » اصيبت ذات سنـة بقحط شديد ، فجاع الاهلون واستغاثوا بالحاكم ، فردهم اقبح رد ، فثاروا وهاجمـوا السراي ، فوعدهم وكيل الشؤون الداخليـة بتحقيق مطلبهم ، ولكن السلطة لم تلبث ان أقالت هذا الوكيل ، وأعدمت الثائرين ، ومثلت بهم .. فلم ينس ماو تسي تونغ هذه المأساة ، وتركت في نفسه ثورة عنيفة على الظلم ... ثم تتابعت بعد ذلك المآسي التي تقوي في نفسه هذه الثورة وتذكيها .

وفي سن السادسة عشرة التحق الفتى بمدرسة حديثة في هشيان هشيان تلقن علوم الغرب ، وقد حاول أبوه بادىء الامر منعه من الانتساب اليها ، ثم وافق على رغبته إذ اكد له اصدقاؤه ان هذا الضرب من التعليم يزيد في مقدرة ولده على كسب المـال . وفي هذه المدرسة تلقن ماو تسي تونغ مبادىء العلوم الطبيعيـة والرياضية وطالع كتباً كثيرة في التاريخ والجغرافيـا ، وقرأ كتاباً اسمه « ابطال العالم العظـام » وكتابين أدبيين للكاتبين الصينيين الكبيرين « كيان يو دي » و « جيان جيجـاو » اللذين يعدان من الآباء الفكريين لثورة سنة ١٩١١ ، فأثرت هـذه الكتب في نفسه وفي توجيهه ..

ثم كانت ثورة سنة ١٩١١ فسمع ماو شيئاً كثـيراً عن سون يات سن ، وأعجب به اعجاباً عظيما ، واتفق مع رفاقه في المدرسة على قص جدائلهم رمزاً لنقمتهم على الاسرة المالكـة ،

وما لبث ان التحق بجيش الثورة في جانشا ، واخذ يطالع الصحف الثورية ، ويتناقش مع الطلاب والجنود في الاشتراكية والاصلاحات الاجتماعية .

وبعد ان قضى في الجيش سنة ونصف السنة ، استقال منه والتحق بمدرسة تجارية في جانشا . غير انه لم يلبث ان تركها بعد شهر واحد وانتسب الى المدرسة الثانوية الاولى وبقي فيها ستة اشهر ، ثم تركها ايضاً ووضع لنفسه منهجاً تعليمياً خاصاً قوامه المطالعة اليومية فكان يقضي نهاره بطوله في دار الكتب منقباً مطالعاً باهتمام شديد . ثم التحق بكلية هونان النظامية وبقي فيها حتى سنة ١٩١٨ .

وفي هذه المدرسة تبلورت افكار ماو السياسية ، واسس « جمعية الشعب الجديد الدراسية » للعمل على اصلاح البلاد وانهاض الطبقات الشعبية . وكانت هذه الجمعية تستوحي مبادئها من مجلة « الشباب الجديد » التي كان يصدرها « جين توهشيو » مؤسس الحزب الشيوعي الصيني ويحرر فيها «يوشيه» الاديب الصيني الكبير ، وقد تأثر ماو بهما تأثراً عظيما .

وفي السنة الاخيرة من سني دراسته في الكلية توفيت امه ، فعدل عن العودة الى قريته ، وسافر الى « بكين » حيث اشتغل مساعداً لامين مكتبة الجامعة ، ولكنه لم يلبث ان عاد الى جانشا فاسس « جمعية الكتاب الثقافية » الى جانب «جمعية الشعب الجديد الدراسية » واخذ يحرر في مجلة « هشيان جيان » منتصراً لمبادىء سون يات سن .

يقول ماو : « وفي سنة ١٩١٩ ذهبت الى شنغاي وقابلت « جين توهشيو » فترك في نفسي اثراً عظيماً لا يعدله أي اثر آخر ». وبعد سنتين من هذه المقابلة اسس « جين توهشيو » « ولي ناجو » الحزب الشيوعي الصيني ، وهما من انبغ قادة الفكر في الصين ، فحضر «ماو تسي تونغ» تأسيسه واصبح سكرتير منظمة «هونان» وعندما اتخذ هذا الحزب سنة ١٩٢٣ قراره التاريخي بدخول حزب « الكومانتنغ » والتعاون معه في مكافحة العسكريين الشماليين ، اصبح ماو عضواً في المكتب التنفيذي للحزب الشيوعي وعضواً في المكتب التنفيذي لحزب « الكومانتنغ ».

وعلى اثر وفـــاة سون يات سن ، تولى ماو تحرير صحيفة « السياسة الاسبوعية » التي كانت تصدرها الدائرة السياسية في حزب الكومانتنغ ، فحمل حملة شديدة على الجناح الايمن في هذا الحزب . ثم اصدر كراساً بعنوان : « تحليل لمختلف طبقات الشعب الصيني » فعارض جين توهشيو الآراء الواردة فيـه ، وعارض نشره في الصحف الشيوعية المركزية . وبدأ الخلاف يشتد بين هذين المفكرين حتى بلغ ذروته في اواخر سنة ١٩٢٧ ، وكان جين يرفض آراء ماو دائماً ويهاجمهـــا بعنف ، وماو يتهم جين بالانتهازية والميل الى المصالحة مع احزاب اليمين !

وبالرغم من وقوف الحزب الشيوعي ، بتأثير جين توهشيو ، موقفاً فاتراً من حركة الفلاحين ، فقد اظهر هؤلاء رغبة حـارة في النضال من اجل تحررهم من نـير الاقطاعيين ، فعمـد ماو تسي تونغ الى تأليف « اتحاد الفلاحين الصيني العام » وانتخب رئيساً

له ، فأخذ كبار الموظفين وقادة الجيش يسمون هذا الاتحاد « اتحاد المتشردين » ، وامره جين بالانسحاب من هونان ، متهماً اياه بالانحراف ، وبجر الحركة الثورية الى الانهيار .

ولكن ما لبث شان كاي شك ان وجه ضربته الكبرى الى الديموقراطيين وفصل الحزب الشيوعي عن الكومانتنغ ، فاغتنم معارضو سياسة جين واتجاهه الانتهازي هذه الفرصة ، وقرروا تحميله تبعات اعماله واخطائه ، وفي السابع من آب سنة ١٩٢٧ عقدت اللجنة المركزية اجتماعاً فوق العادة وقررت خلع جين توهشيو من سكرتارية الحزب لما ارتكبه من اخطاء خلال قيامه بمهام السكرتارية ، وقد بذل ماو تسي تونغ جهداً كبيراً لاصدار هذا القرار . ومن القرارات التي اتخذتها اللجنة في هذا الاجتماع ، رفض كل تعاون مع الكومانتنغ لانه لم يستطع الاضطلاع بمسؤوليات الثورة الديموقراطية وأصبح آلة عمياء في يد الاستعمار الاجنبي .

اخذ ماو تسي تونغ يدعو الحزب الشيوعي الى النضال الصريح في سبيل الاستيلاء على الحكم . وعكف على تنظيم الحركة الثورية في هونان فاستطاع تأليف جيش صغير من الفلاحين وحاول هذا الجيش الاستيلاء على الحكم في مقاطعته ، فخاض عدة معارك ، واصيب بالهزائم المتواصلة ، ولكنه احتفظ بوحدته واقام في جبل « جينكانشان » من شتاء ١٩٢٧ حتى خريف ١٩٢٨ وكان يضم الف جندي . وكانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لم توافق على هذه الحركة ، فلما مني جيش ماو بالاخفاق نبذته نهائياً وطردته من

المكتب السياسي ولجنة الجبهة في الحزب . الا انه بقي مصراً على رأيه لاعتقاده بصحته ، والف حكومة سوفياتية في « جالين » على حدود هونان وانتخب « توتسونبين » رئيساً لها .

وحول هذه النواة الصغيرة من الثوار، بدأت المناطق السوفياتية الصينية تتسع ، وجعل الجيش الاحمر الصيني يزداد قوة وعدداً ، حتى كاد نفوذ حكومة جالين السوفياتية يشمل منطقة هونان كلها .

ومثلما عانى ماو تسي تونغ معارضة جين هوتشيو من قبل، عانى من بعد معارضة « لي ليسان » الذي تولى سكرتارية الحزب من سنة ١٩٢٩ الى سنة ١٩٣١ ، فقد أخذ هذا على ماو تباطؤه في اعلان الثورة العامة ومهاجمة قوى الكومانتنغ ، بينما كان ماو يرى ضرورة التوسع شيئاً فشيئاً ، وتوطيد مراكزه في كل بقعة يستولي عليها قبل الزحف الى بقعة اخرى . وقد أدت سياسة لي ليسان الى اتهام ماو بالانتهازية وثورة احدى الفرق السوفياتية الصينية على فرقه الاخرى،ولكن الايام قد برهنت على حكمة ماو وسداد رأيه .

وبدأ « شان كاي شك » اولى حملات الافناء التي شنها على المناطق السوفياتية الصينية ، واستمرت هذه الحملات حتى شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٣٤ حين قررت الجمهورية السوفياتية الهجرة بجيشها وشعبها جميعاً .. وكانت هجرةً عجباً .. بل كانت اعجب هجرة عرفها التاريخ : اختار الشيوعيون الاشياء الثمينة لديهم وحملوا قسماً منها على ظهور الحمير والبغال وحملوا

القسم الآخر بانفسهم ، ثم أحرقوا منازلهم ، وساروا يتقدمهم جيشهم الاحمر وعدده ٩٠٠٠٠٠ مقاتل رجالاً ونساء، واخترقوا خط الحصار الذي ضربه شان ، واجتازوا ٦٠٠٠٠٠ ميل اي ما يعادل ضعف طول الاراضي الاميركية كلها ، يلاحقهم مليون جندي مجهزين باحدث الاسلحة التي اخرجتها مصانع الولايات المتحدة . وتحلق فوقهم الطائرات فتحصدهم بنارها ، والدوريات المعادية لهم تحرس الطرق التي يتجهون نحوها ، وتنسف أمامهم الجسور والسفن ووسائل النقل ..

قتل منهم كثيرون فظلوا في العراء طعاماً للوحوش الضارية والطيور الجارحة ، ويئس كثيرون فهربوا الى اول قرية عرضت لهم ، وأجهد التعب كثيرين فتهالكوا حيث بلغ بهم الاعياء أوجه .. ولكن عدد المتطوعين الذين ينضمون اليهم من القرى التي يمرون بها كان اكثر من القتلى واليائسين والمجهدين ..

وعبرت هذه القافلة الاودية ، وارتقت الجبال ، وانحدرت الى السهول الواسعة والصحاري القفر ، وهي تقاتل خلال ذلك ، وتكافح البرد والجر والظمأ والجوع ، حتى بلغت بعد عام كامل موطنها الجديد ، وهو منطقة شنغسي التي اختارتها مقراً لها .

واراد شان كاي شك متابعة حملاته على الجمهورية السوفاتية الصينية في موطنها الجديد ، ولكنه ما عتم ان اضطر الى التحالف معها على الوقوف في وجه العدوان الياباني كما ذكرنا في الفصل السابق .. واستمر هذا الحلف حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .. فلما وضعت هذه الحرب اوزارها كان الشيوعيون والانصار قد

حرروا قسما كبيراً من شمال الصين وبادروا الى اقامة الحكومات الشعبية فيه وتوزيع أراضيه على الفلاحين ..

وكان بديهياً ألا يرضى « شان كاي شك » بهذا الوضع ، وان يعمل على بسط نفوذه على هـــذه المناطق المحررة مستنداً على المساعدة الاميركية وعملاء اليابان القدماء ، فبادر في صيف سنة ١٩٤٦ الى قذف قواه كلها في هجوم صاعق على المناطق الشمالية المحررة ، فتقدم جيشه فيها تقدماً كبيراً ، واستولى على مئتين من عواصمها . وخيل لشان كاي شك وانصاره ، انه بالغ الهدف الذي يرمي اليه ، فتابع حملاته الصاعقة عـــلى الشمال حتى صيف سنة ١٩٤٧ .

ولكن القوى الشعبية التي تتمتع بقيادة ماو تسي تونغ الحكيمة ، والخبرة الحربيـــة التي كسبتها خلال عشرين سنة من القتال ، والتأييد العظيم الذي تلاقيه لدى ملايين الفلاحين ، كانت تتحاشى الضربات التي توجـــه اليها باساليب ستراتيجية عجيبة ، وتستعد في الوقت نفسه للقيام بهجوم معاكس . .

وفي آب سنة ١٩٤٧ بدأ هذا الهجوم الساحق ، فاخذت القوى الشعبية تزحف على الجنوب وكأنها الموج الزاخر ، فاستعادت جميع ما خسرته واخذت تضم اليها مناطق جديدة .

وتابعت هذه القوى زحفها فاجتازت الوف الكيلو مترات ، واستولت على الوف المدن والقرى ، واسرت مئات الالوف من الجنود ، وغنمت مقادير عظيمة من المعدات الحربية ، وبهذه المعدات نفسها شقت طريقها الى نانكين عاصمة الصين الجديدة .

ونحن نكتب هذه السطور وهذه القوى لا تزال تواصل زحفها، وليس من يدري اين يقف لهيب النار التي اشعلتها ، وهل يقتصر على بلادها ام ينطلق شرره فيضرم النار في الدنيا كلها .

obeikandl.com

مراجع الكتاب

Sun Yat Sen : Souvenirs d'un révolutionnaire chinois.

Henry Bond Restarick : Sun Yat Sen, Libérateur de la Chine.

Wou Saofong : Sun Yat Sen, Sa vie et sa doctrine.

Fernand Farjenel : A travers la révolution chinoise.

Tcheng Soumé : Souvenirs d'enfance et de revolution.

A. F. Le gendre : La civilization chinoise moderne.

Henri Cordier : La Chine.

G. Soulié de Morant : Histoire de la Chine de l'Antiquité jusqu'en 1929.

Le réveil National de la Chine, études publiées avec la collaboration des anciens élèves chinois de l'Ecole libre des sciences politiques de Paris.

محمد صبيح : شيانج كاي شيك .

ادجار سنو : رجل آسيا ، ما تسيتون . تعريب زكي خيري .

فرنك اوين : الصين في ماضيها وحاضرهـــا . طبعت بمجلات الكاتب المصري .

فهرست

الامبراطورية العجوز	٣
عدو الآلهة	٨
الفكر الحر	١٦
ابن الارض وابن السماء	٢٣
اسمح لي بقتلك	٣٣
سنة ١٩٠٠	٤٢
محاولات مخفقة	٤٧
ميلاد الحرية	٥٧
من بيت أبي ضربت	٦٢
حب .. و كفاح	٦٩
تطور جديد	٧٥
مبادىء سون يات سن	٨٢
الارث العظيم	٩٢
شان كاي شك	٩٧
ماو تسي تونغ	١٠٧
مراجع الكتاب	١١٨

obeikandl.com